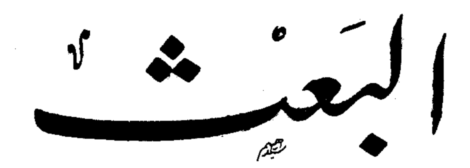


« ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجـــداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ... ؟ »

(قرآن كريم)

محمد على مغربى

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

١٩٤٨

الاهـــداء

إلى كل شاب يريد أن يشق لنفسه طريق المجد ، وللأمة طريق الحياة .

أهدي هذا الكتاب .   المؤلف

كتب للمؤلف تحت الطبع

الذكريات : « ديوان شعر »

أقاصيص : مجموعة من الأقاصيص الصغيرة تمثل الأقصوصة الحجازية الحديثة .

مـــكة : الكتاب الذى يتحدث عن العاصمة الاسلامية الكبرى من نواح لم تطرق من قبل يمتزج فيه التاريخ بالأدب والاجتماع .

من أحاديث النفس : مجموعة أحاديث سبق نشرهـا فى الصحف الحجازية، وبعضها لم ينشر من قبل .

الحديث المعاد : مجموعة المقالات والأبحاث التى نشرت للمؤلف من قبل، وهى تشمل مباحث فى الأدب والتاريخ والاجتماع .

شعر الغزل والشعراء الغزلون قديماً فى الحجاز : بحث ألقيت مقدمته كمحاضرة فى جمعية الاسعاف بمكة .

حالتنا الاقتصادية : مجموعة أبحاث اقتصادية سبق نشر بعضها فى الصحف الحجازية .

بسم الله الرحمن الرحيم

– ١ –

كانت هذه أول مرة يركب فيها فتانا البحر ، وأول مرة يغادر فيها بلاده هذه إلى بلاد بعيدة نائية ، فهو لم يكن يعرف البحر إلا فى هذا الشاطىء الممتد تجاه بلده « جدة » هذا الشاطئ العجيب الذى يحيط بالمدينة من الجنوب والغرب والذى يقترب حتى يحاذى السور ويبتعد حتى لا يدركه الراجل إلا بعـد جهد كبير وهو لم يكن يعرف هــذه السفن إلا حينما كان يذهب إليها أيام الأعياد ليقضى فيهـا ساعة أو بعض ساعة ، يوماً أو بعض يوم ، إن بعدت به الشقة وطالت الرحلة . ولعله لم يكن ليتاح له ذلك كثيراً فكم كانت فرحة قلبه بهذه الرحلة البعيدة الممعنة فى البعد ، إنه سـعيد حقاً بهذه الرحلة الطويلة وبكل ما فيها ، بالبعد عن جدة ، وركوب البحر ، وبالمتعة فوق ظهر السفينة الكبيرة « رضوانى » ، وبهذه الموانىء والمدن الكثيرة التى يسمع أسماءها كثيراً من كل من ركب البحر قبله ، وتمتع بما فى هذه الرحلات من لذة وطرافة وتنوع .

ولكن أكان هذا شعور من حوله من الأهل والأصدقاء ، من مودعيه فى هذا القارب البخارى الزاخر ؟

كان الناظر إلى هذه الوجوه يشعر بأنها تفرق من التعبير عن شيء فى النفس ،وكان الممعن النظر يدرك أن هذه القلوب تهجس بأحاديث هامسة تنطوى على كثير من الحسرة ، وكثير من الإشفاق ولعل البعض أو الأكثرين من هؤلاء الصحابة والقرابة كان يخشى أن تكون هذه الرحلة لهذا الفتى رحلته الأخيرة فلا تراه العين بعد من قريب أو بعيد ، فقد كان الفتى مريضاً ، ممعوداً ، وكانت هذه الصفرة الجميلة تكسو وجهه بإهابها الذهبى الساهم ، وكانت عيناه ذابلتين متكسرتين ، ولم يكن لفرحته ونشاطه المستوفز ، وحيويته المتجاية أن تخفى كل هذه الأعراض على العين البصيرة والنظر النفاذ .

ولكن أكان الفتى يفكر فيما يفكر فيه أهلوه وصحابته ؟ أكان يشفق إشفاقهم ويتحسر حسرتهم ؟ أم كان منشغلا عن ذلك منصرفاً عنه ؟

نعم كان الفتى منصرفاً عن كل هذا إلى ما ينتظره من متاع كثير فيه للعين قرة ،وللقلب مسرة ،وللنفس آمال وطماح .

لم يكن يعنيه من أمر صحته شيء ، ولم يكن يعنيه من أمر نفسه شيء ، بل لم يكن يعنيه شيء فى هذه الحياة — كما كان دائماً — سوى أن يلهو بالساعة التى يعيشها ، فهو يحب اللهو والضحك ، وهو يحرص على المتاع بالحياة والتذاذها ، واستخلاص كل ما يمكن استخلاصه من أسباب المتاع واللهو والسرور . لايبالى أكان هذا المتاع حلالا أم حراماً ،ولا يعنى بأن تكون هذه المسرة بريئة أو منكرة ، وأن يكون هذا اللهو مقبولا أو ممجوجاً ، لايأبه لشيء ، ولا يحفل

بشيء ؛ طبيعة منطلقة من كل قيد إلا قيد اللهو والمتاع إذا صح أن يكون للهو قيد وللمتاع ضوابط أو حدود .

ولهذا أسرف على نفسه فى كل شيء ؛ أسرف فى لهوه ومتاعه ، وسهره ولذته ، حتى فنيت صحتـه وحتى آذن شبابه الريق النضر بالانحلال ، وهو لم يتجاوز العشرين ، واخترمته العلة وهو فى أوج شبابه ، وفى جمال فتوته ، واكتمال حيويته ، وتسلل إليه الداء وهو هو الفتى المدلل الجميل .

وأدرك هذا من حوله فاهتموا لأمره وطلبوا له البرء والطب حيثما أمكن أن يتاح ذلك فى الحجاز ، فى جدة وفى الطائف والمدينة ، ولكن أنّى لهذا الفتى الذى كأنما ركب الإعصار فى طبعه أن يهدأ ، وأنّى لهـذا الجسم الناحل أن يستريح وهو المولع بالسهر ، الكلف باللهو ، غير المحتفل بشيء اسمه دواء أو راحة .

لهذا فكر من يقوم على أمره فى أن يرسل إلى مستشفى من هذه المستشفيات الكبيرة التى تقوم فى ريف الهند الساحر ليكون هناك تحت رعاية الأطباء ، وتحت النظام الصحى الدقيق . ولهذا حزم الأمر على السفر ، وتم هذا سريعاً ، وسريعاً جداً أكثر ممـا كان ينتظر الفتى أو يقدر ؛ فقد عاد من الطائف ، وما هو إلا عصر يوم حتى قيل له انك مسافر غداً ، وما كان ضحى اليوم الثانى حتى كان فى هذا القارب البخارى ومن حوله هؤلاء الأصدقاء والأهلون ، ينظرون إليه ويطوون النفس على هم مقيم وحسرة لاذعة ، وكمد

يظهر فى هذه الوجوه الباهتة، والأبصار الذاهلة ، والأطراف المرتجفة . وكان فتانا — كما سبق القول — فى معزل عن كل هذا، يتحرك كأنما ركب فى أعصابه إعصار ، ويداعب هذا بكلمة ، ويرشق هذا بنكتة ، والجميع يتظاهرون بالضحك والسرور وهو يضحك ملء قلبه وجسمه كأنما هو عروس فى موكب عرسه ، وكأنما هو ينتظر أن يزف إلى عروسه فى هذه الساعات القلائل الباقية من هذا النهار.

وأخيراً ، وضع الفتى فى غرفته من الباخرة وانصرف المودعون من الأهل والأصدقاء بعد أن أوسعوه لثماً وتقبيلا ، وعناقاً حاراً ، ودعوات صادقة نبيلة ، وبعد أن أوسعهم ضحكاً وسروراً ولوعة ودموعاً ، وخلا الفتى إلى نفسه فى هذه السفينة الكبيرة بعض الوقت ، ولكن حركته الدائمة وحيويته الدافقة ، وتطابه للمتاع ، كل هذا أبى عليه أن يسكن فى هذه الغرفة الجديدة عليه ، بسريرها الضيق ، وبما فيها من تحف جديدة لا يعرفها إلا فى بيوت الغربيين فى جدة ؛ هذه المروحة الكهربية التى يدير مفتاحها فتنطلق بهواء قوى عنيف يبدد الحر فى هذه الحجرة المتناهية فى الضيق المغلقة كأنها صندوق ، هذا الجرس الذى تضغط عليه فلا تمضى ثوان إلا ويطرق الباب عليه — ندل — يسأل عما يطلب ليجيب طلبه، هذا النور الكهربى الذى يفتحه فاذا الغرفة تموج فى بحر من الضوء الساطع الجميل ، هذا المغسل الأنيق الذى ينطلق منه الماء بارداً عذباً زلالا ، إلى غير هذا وذاك من الطرائف التى تعد فى بيت هذا الفتى حلماً من الأحلام فاذا بها الآن حقائق رخيصة مبذولة .

عبث الفتى بكل هذا بعض الوقت وانطلق من هـذه الغرفة ولعله لم يوصدها فلم يكن الإحكام والإيصاد من طبعه ، ولعله نسي صنبور المـاء مفتوحاً ، ولعل صـنبور المـاء ملأ الحوض وسال فى الغرفة ، ولعله ترك المروحة تدور ، والنور مشتعلا فلم يكن لكل هذا شأن يعنيه أو يحفل به ، فلينطلق المـاء ، وليشتعل النور ، ولتدر المروحة ما شاءت أن تدور فليس هو مكلفاً أو حافلا بما يحبس أو ينطلق ، وما يشتعل أو ينطفىء ، وما يقف أو يدور. إنما هو معنى باللهو حيث كان ، مشغول بالمتاع أنى وجد ، منصرف إلى السرور يتطلبه ، وإلى الضحك يتصيده ، وإلى الجديد يستكشفه ، فما له ولهذه الأمور.

– ٢ –

ترك أسامة ــ فهذا اسمه ــ غرفته فى الباخرة وانطلق إلى ظهرها فى خفة ومرح ، ووقف على الحاجز مطلا على الزوارق البخارية والشراعية المحيطة بالبـاخرة والتى تنقل الركاب والمسافرين ، وتعود بما بقى فى الباخرة من بضائع إلى المدينة ، واستمع مسروراً إلى جلبة البحارة ولغطهم ، ولم يطل النظر إلى هذه السفن الشراعية فقد كان عليما بها خبيراً بأمرها ، فقد كانت له فيها رحلات وجولات فطالما نقلته وصحبه إلى البواخر التى ترسو فى الميناء ، أو خرجت بهم فى « سرحة » لصيد الحوت فى الليالى القمرية الجميلة ، وطالما لعب الهواء بهم وبهذه السفينة التى يسميها أهل جدة أسماء عديدة مختلفة

بحسب أوضاعها وأحجامها — من سنبوك ، إلى بوت ، إلى ناورى — إلى آخر هذه الأسماء الكثيرة . وطالما ذهب بها — إلى السواعى — وهى السفن الشراعية الأكبر حجماً والتى تقف بعيداً عن الميناء فى مرسى مخصوص ، كما يبتعد مرسى البواخر عن الميناء كذلك ، ويسلك له هذا الطريق الطويل المتعرج الملىء بالصخور المرجانية التى يخشى منها على هذه الزوارق الصغيرة فجعلت لها علامات فى البحر ليتجنبها السالكون .

لم يطل النظر إلى كل هذا ، ولكنه نظر إلى كل ذلك مسروراً بأنه سيفارقه إلى حياة جديدة ووجوه جديدة ومدن جديدة ، فما أكثر شغفه بالجديد ، وما أحبه إلى قلبه وأحلاه .

وسار فتانا على ظهر السفينة مرحاً فرحاً كأنما أطلق من عقال يقفز فى فرحة الطفل وحرارته ، ويتوثب توثب الظبى الطليق ، ويتنقل تنقل الطير فهو تارة فوق ظهر السفينة وطوراً فى جوفها ، وحيناً فى أعلى الباخرة ، وساعة فى موضع الماكينة ، أو فى مخزن البضائع ، وهكذا ظل متنقلا حتى شعر بالتعب والإعياء فاستلقى على كرسىّ من هذه الكراسىّ الطويلة المبثوثة على ظهر السفينة وأطلق نظره فى البحر الأزرق الممتد ، وفى السماء الصافية المشرقة التى تلتقى بالماء فى نهاية الأفق ، أو فى امتداد البصر فلا يكون الفارق بينهما إلا خيطاً ضئيلا كأنه الصراط فيما قرأ فتانا فى كتب التفسير والحديث .

وأخيراً صفرت الباخرة صفيراً طويلاً مزعجاً فاذا من بقى فيها من أهل جدة، من البحارة والمودعين ، والتجار وغيرهم يهرول إلى هذه الزوارق القليلة الباقية فى البحر ، وإذا بهذه الزوارق تنطلق بركابها إلى المدينة ، وما هى إلا بعض ساعة حتى بدأت حركة السفر فرفعت السلاسل والأثقال التى تربط السفينة بالمرسى ورُفع السلم واستدارت الباخرة دورة بطيئة واستدبرت جدة وما حولها واستقبلت الخضم، وأخذت تغادر هذه المياه الممتلئة بالصخور متئدة فى سيرها متعرجة مبطئة ، وكان فتانا يرقب كل هذا بعين فيها طرافة الجديد ، وقلب فيه لذة النقلة والارتحال ، ونظر إلى المدينة التى عرف كل شبر فيها وكل بيت ، وكل حانوت ، وكل رجل وكل شاب ، وكل شيخ . المدينة التى عرفها طفلا وصبياً وغلاماً وفتى ينهد إلى الشباب ، فلم يتحرك قلبه بالحزن لفراقها ، ولم تهتز نفسه للابتعاد عنها ، ولكنه تذكر شخصاً واحداً عزيزاً عليه فى هذه الساعة التى أخذت معالم المدينة ومبانيها تتضاءل فى عينيه وتذوب كما يذوب قرص الشمس فى قاع البحر ، أوكما يذوب الزبد فى أعقاب الموج ، تذكر شخصاً واحداً فحسب هو والدته الحزينة التى تركها تنعى فراقه ، والدته الحزينة التى لم يكن لها من أمل إلا هو ، والتى ضنت به فيما مضى على السفر للعلم حينما طلب عمه أن يسافر ليتعلم ، ولم تضن به الآن على السفر للشفاء والبرء ، ولكنها فارقته حزينة يمزق الحزن قلبها تمزيقاً ، تذكر الآن كيف كانت أيامها الأخيرة حينما علمت بسفره كلها بكاءاً ولوعة ، وكلها حسرة وحزناً ، وتذكر كيف ودعته وكيف

أوسعته لثماً وتقبيلا ، وبكاءاً وعويلا حتى بللت دموعها وجهه وخده وشفتيه ، وكيف أغمى عليها أخيراً فلم تره حينما فارقها مسرعاً لايلوى على شيء ولا ينتظر شيئاً . وهنا ذرفت عينه دمعة وفاء لهذه الوالدة الحزينة ، ولهذه الأم الحنون ، ولكن هذا لم يطل به كثيراً فانتقل ذهنه إلى والده الشيخ الذى كان فيما يرى هو سبب بلائه ونكبته ، فقد كانت حياة أسرته حياة حب وبر ، ومحبة وتعاطف إلى أن جاءت الساعة التى دب فيها الشجار بين والده ووالدته فطلق الرجل زوجته ومن يومئذ حل الحزن وحلت الكآبة فى ذلك البيت محل الحب والتعاطف والفرح والسرور.

لم يأسف على فراق والده ، وإن كان يدرك أن والده كان كثير الأسف لفراقه ، ولكنه لم يكن ليظهر اللوعة كما تظهرها والدته ، ولم يكن ليبدى الحزن كما تبديه أمه فقد كان أبوه جلداً صابراً ، وكان رزيناً وقوراً ، وكان هذا أخلق به وبوقاره وسنه ، ورجولته ، ولكن أباه دعى له دعاءاً حاراً وشيعه بهذه الدعوات الطيبات ، وأوصاه بأن لايترك الصلاة ، ولا القراءة كل يوم ، وسلمه مصحفاً صغيراً ليحتفظ به فى هذا السفر الذى لم يكن يعرف مداه .

لم يأسف على فراق والده كثيراً . ومرت ذكراه بنفسه كما تمر ذكرى بعيدة فى ذهن مشغول ! ! ولم يذكر بعد هذا أحداً بعينه ، ولكنه تذكر جموع الأصدقاء ، والأخلاء والأخوة والأعمام والأخوال والقرابة وودعهم بهزة إدكار من رأسه وبسمة عابرة من شفتيه لم تلبث

أن ذابت هى الأخرى ، وحلت محلها الحركة والنشاط . وأخيراً غابت المدينة كلها عن عينيه وبدت سلسلة الجبال الصغيرة تظهر فيما بقى من آثار جدة ومعالمها ، فانصرف عن هذا كله إلى غرفته بالسفينة وأخذ يرتب حقائبه وأمتعته بها ، ولكن هذا لم يطل به كذلك فقد قرع الباب قرعة رفيقة فانثنى فإذا خادم من هؤلاء الخدم الكثيرين يدعوه إلى الغداء فى صالون الباخرة فقد آن للسفر أن يتناولوا غداءهم ، وكان صاحبنا لم يستمع إلى هذا الجرس الذى انطلق يدعو السفر إلى هذه المائدة السخية فى البحر ، ولعله استمع إليه ولكنه لم يعبأ به فأنّى له أن يعرف هذا وهو لم يألف بعد هذه الحياة ولم يعرف عنها إلا القليل .

- ٣ -

كانت مائدة الطعام بالسفينة مرتبة ترتيباً لم يعهده فتانا قبل إلا فى الولائم الكبيرة التى كانت تقام فى البيوت الكبيرة فى جدة بعض الأحايين ، والتى كان يذهب إليها مدعواً أو متطلعاً ، كان الطعام على مائدة مستطيلة صفت من حولها الكراسىّ الجلدية الأنيقة ، وصفت على المائدة كثير من الأطباق الصينية النظيفة ، وعدد كثير فيما رأى من الملاعق والشوك والسكاكين والأكواب والمناشف إلى غير ذلك من أدوات المائدة وزينتها ، وارتبك الفتى قليلا فقد أدرك لأول وهلة أنه لا يحسن الأكل بهذه الطريقة الافرنجية ، وأنه كان يتكلف لذلك تكلفاً أن اضطر إلى الجلوس إلى مائدة من هذا النوع ، وتذكر الآن

أن صديقاً له أوصاه بأن يأكل فى غرفته ، ولكنه كان قد نسى هذا وكان محله فى المائدة خالياً ، وكان كرسيه يدعوه إلى الجلوس فجلس. وكان جلوسه وارتباكه وملابسه العربية وتأخره عن القدوم إلى حجرة الطعام كل هذا كان موضع التفات الطاعمين وسخرهم ، ولعل ابتسامات مكتومة ظهرت على بعض الوجوه ، أو امتعاضاً بسيطاً لمح فى بعض السمات ، ولعل هذا حزّ فى نفس الفتى بعض الشيء ، ولكنه على أى حال قد اضطر إلى الجاوس فجلس .

كان يتصدر مائدة الطعام — قائد الباخرة — وكان إلى جانبه بعض الضباط ، وبعض الأوربيين الذين كانوا يسافرون إلى الهند ، وكان فتانا من ركاب الدرجة الأولى فكان لابد وأن يدعى إلى هذه المائدة ، وأن يجلس إليها . فجلس بين هؤلاء الفرنجة الذين كانوا فى حللهم الأوربية وفى بزاتهم الضيقة وجلس هو فى ملابسه العربية الفضفاضة غريباً عنهم فى كل شيء .

ولم يلتفت إليه الطاعمون بعد ما بدا من سخرهم وامتعاضهم فى أول الأمر فانصرفوا إلى طعامهم وانصرف هو إلى طعامه ، وإن كان لم يأخذ منه بحظ موفور ؛ فقد كان مرتبكاً بادى الارتباك ، وكانت ورطته ظاهرة فهو لايعرف كيف يدير هذه الأدوات ولايحذق الأكل بها كما يفعل هؤلاء الأوربيون الذين مرنوا على ذلك وحذقوه .

كان الحديث على المائدة بالإنكليزية التى يعرف فتانا طرفاً منها والتى كانت تبلغ معرفته إياها إلى درجة يفهم بها الحديث مجملا وإن كان لايحسن الإجابة عليه .

قال الكابتن – وكأنما كان يعتذر إلى صحابته من الأوربيين : هذا فتى عربى أوصانى به الطبيب – يقصد طبيب الكرنتينة بجدة – وكان للفتى وعائلته به علاقة .

فقال أحد الطاعمين : – هؤلاء العرب همج ، انظر إليه انه لايعرف كيف يأكل ! ! لقد ألفوا أن يأكلوا بأيديهم ، ويسيل الطعام من أفواههم حتى يلوث ملابسهم القذرة .

قال الثالث : أمة جاهلة متوحشة ! ! . وكان الفتى يفهم عنهم بعض الحديث ، ولكنه لم يكن يفهم كل شيء فزاد ارتباكه وزادت حيرته ، وانقلب هذا الارتباك وهذه الحيرة إلى ألم باد ، فأمسك المتكلمون عن الكلام فى هذا دون احتفال ظاهر وبدأوا يتحدثون فى موضوعات أخرى لاتعنى فتانا شيئاً . ولايدرى الفتى لماذا أمسكوا عن الكلام وقد بدأوه ، أأدركوا فهمه لما يدور ، وهم لايعرفون عنه أنه يفهم لغتهم ، أم أحسوا أنه أدرك بحسه موضوع الحديث فأداروه إلى شأن آخر من شؤون الكلام . على أية حال لم يهتم الفتى بهذا وإنما وجه كل همه إلى أن يفارق هذه المائدة الثقيلة على أن لايعود إليها مرة أخرى ، وأخيراً تم له ما أراد فقد آن للطاعمين أن يفرغوا من طعامهم وآن للمائدة أن يقوم عنها القوم وأن ينصرفوا كل إلى حيث يريد ، وعاد الفتى إلى غرفته مكدوداً بعض الشيء ، ولكنه كان على أى حال فرحاً بهذا الانطلاق .

كانت هذه أول صدمة لقيها الفتى فى هذا العالم الجديد عليه ،

ولكنه لم يعبأ بها كثيراً ، ولم يفكر فيها كثيراً ، فقد كانت طريقته العملية أن يعالج كل شيء علاجاً يضمن له الراحة والحرية . أليس الجلوس إلى هذه المائدة ومع هؤلاء القوم هو الذى يربكه ويثقل على نفسه ، فما الذى يضطره إلى هذا وفى وسعه أن لا يجلس مرة أخرى إلى تلك المائدة ، ولا إلى أولئك السفر . وكان هذا أول ما عمله ؛ فقد دعا الخادم وأخبره أنه يود أن يتناول الطعام بمفرده فى غرفته تلك من السفينة فهز الخادم رأسه هزة طاعة وإذعان ، وانتهى بهذا ما يضايق الفتى ويثقل عليه . وإن كان قد ترك فى نفسه آثار كره لهؤلاء الأوربيين لم يكن يتبينها من قبل أو يعهدها فى نفسه التى لا تكره أو تحب .

— ٤ —

كان الفتى يقضى أيامه فى السفينة موزعة بين السير على ظهرها ، وتفقد كل ثنية وغرفة فيها . أو الاستلقاء على كرسى من هذه الكراسى فوق السطح يطيل النظر إلى الماء الأزرق وإلى الموج المتدافع إن كان الهواء رائقاً والجو صفواً فيقضى ما شاء الله أن يقضى من وقت فى هذه الجلسة المريحة اللذيذة . وكان أحب مناظر البحر إليه حينما تكون السفينة فى وسط البحر فلا يرى الناظر — من أى جهة نظر — إلا السماء والماء ، وإلا هذا الموج المتلاطم ينطح السفينة فى قرنها وربما طار منه رشاش إلى من كان على ظهرها ، وكان يعجبه كثيراً هذا الالتقاء العجيب بين السماء والماء فى هذه الزرقة الصافية الجميلة المحببة إلى نفسه على الدوام .

وربما جلس فى بعض الأحيان إلى ضباط الباخرة من الهنود وخدمها من اليمنيين وأهل الجنوب ليتحدث إليهم ، فيمطرهم بأسئلة عن البحر والسفن ، وعن رحلاتهم والمدن التى يرونها ، حديثاً لايقصد منه الفائدة بقدر ما يرمى به إلى اللذة وتزجية الفراغ . وربما لعب معهم الورق أو بعض ألعاب التسلية الأخرى ، وقليلا ما كان يجلس إلى غرفته يقرأ رغم كثرة ما أهدى إليه من كتب حين سفره بقصد القراءة وتزجية الوقت بها فى هذه الرحلة الطويلة .

وربما ذهب بعض الأحيان — وهذا غالباً ما يكون فى الليل — إلى صالون الجلوس بالباخرة أو إلى ما يسميه الأوربيون غرفة التدخين فاستمع إلى الراديو ، ولكنه لم يكن يستمع إلا إلى الغناء فما له بأخبار العالم شأن ، ولا له بهذه المحاضرات المتنوعة طاقة أو تفكير ، ولكن فرحته بالاستماع إلى الراديو لم تكن تتاح له دائماً ؛ فقد كانت غرفة التدخين ممتلئة غالباً بالأوربيين فكان يذهب إليها فى وقت العشاء الذى يتناوله مسرعاً فى غرفته ، والذى يقضى فيه هؤلاء الأوربيون ساعة وبعض الساعة ، والذى يحتفلون له كثيراً فيبدون فى ملابس سوداء مرتبة أنيقة ، أما هو فكان لايعنى بكل هذا ولايحفل به .

وكان ربما اختلط بعض الأحيان بركاب الباخرة القليلين — فى الدرجة الثالثة — من الهنود العائدين إلى أوطانهم وكان هؤلاء قلة ، ولم يكن هو يميل إلى الاتصال بهم لأنه لايعرف لغتهم ، وإن كان يعجب من أمرهم كثيراً وربما رثى لفقرهم وخصاصتهم .

كان فتانا — إذاً يقضى أيامه على هذا النمط فاذا شعر بالتعب أو الحاجة إلى النوم ذهب إلى سريره فاستلقى عليه ونام ما شاء أن ينام ، وكان طعامه يأتيه في غرفته فى مواعيده المنظمة ، وكان يأخذ شاى العصر فوق سطح الباخرة جالساً إلى كرسيه الطويل مديماً النظر إلى البحر والموج ، منصرفاً عن كل شىء إلى التفكير فى هؤلاء البحارة الذين يقضون حياتهم على الدوام بين السماء والماء .

فى عصر يوم من هذه الأيام بينما كان الفتى يتناول الشاى على ظهر السفينة ، مطلقاً أفكاره تسبح فى هذا الجو الرائق — وفى تلك الزرقة الصافية بين السماء والماء ، مطيلا النظر إلى الموج المتدافع المتلاطم ، لم يشعر الفتى إلا ويد تهزه فى رفق ، وصوت رزين يناديه : — عرب صاحب — فالتفت فزعاً فاذا شيخ هندى وقور له لحية كبيرة تتدلى إلى صدره ، وتحيط برأسه عمامة من الشاش الأبيض كأنها طبق وفى يد الرجل مسبحة كبيرة ، وهو يرتدى ملابس كانت بيضاء فى الأصل ، ولكنها الآن قد حال لونها فأصبحت إلى لون التراب أقرب منها إلى اللون الأبيض الناصع ، وهكذا كان الرجل صورة لهؤلاء الهنود الذين يراهم الفتى دائماً فى موسم الحج والذين كان يضحك من منظرهم فى سره ولكنه لم يكن يعبأ بشأنهم فى قليل أو كثير .

أراد الفتى أن يعبث بهذا الشيخ وأن يضحك منه استجابة لنفسيته اللاهية العابثة ، ولكن شيئاً فى عينى الشيخ رد الفتى عن

عبثه فأمسك وفى نفسه لهذا الرجل من الهيبة ما يشبه الخوف والرعدة ؛ فقد كان ينبعث من عينى الرجل رغم هيئته الزرية تيار قوى دافق ، كأنه وميض برق فى ليلة داجية .

أمسك الفتى عن عبثه متهيباً وما لبث أن هم واقفاً ودعى الشيخ إلى الجلوس فجلس وقدم له كوباً من الشاى وتلطف به ما أمكنه التلطف . قال الشيخ — فى لغة عربية فصيحة كانت موضع عجب فتانا و دهشته — :

أنت عربى من مكة ؟

قال الفتى : نعم انى عربى ولكنى من جدة ، ومكة و جدة سواء .

قال الشيخ : أنت على كل حال من بلد الإسلام وانه ليسرنى أن أدعوك الليلة إلى قراءة المولد النبوى الشريف فى محلنا بالسفينة ، بالعنبر الداخلى ؛ فالليلة ليلة المولد الشريف ونحن سنحتفل بها هنا مع كل من فى هذه الباخرة من المسلمين سواء أكانوا موظفين أم مسافرين وقد أخبرنى شمس الدين — وهو أحد الخدم الهنود الذى يقوم على خدمتك — بأنك عربى من مكة فسررت بهذا .

قال الفتى : — وقد عاوده العبث — ولكن كيف تقرأون المولد فى السفينة ؟

قال الشيخ : انا سنقرؤه كما قلت لك وستحضر معنا لتشاركنا قراءته والاستماع إليه . وكانت لهجة الشيخ حاسمة فلم يملك الفتى إلا أن يجيب بالطاعة والقبول .

وذهب الشيخ من حيث أتى ، وذهل الفتى عن نفسه قليلا يفكر فى هذا الرجل الذى هبط عليه فى هذه السفينة من حيث لايدرى ، والذى كان خليقاً أن يعبث به طول هذه الرحلة لولا أنه مضطر إلى احترامه وتوقيره ، مضطر إلى أخذ نفسه أمامه بضروب شتى من التهيب والحذر.

لو ترك الفتى لنفسه لما ذهب إلى المولد ولا قرأه ، ولا استمع إليه ، فهو يذكر أنه كان يفر من الاستماع إلى المولد كلما دعاه والده إلى الاستماع إليه ، وهو يذكر أنه كان ينفر من هذه الاجتماعات الطويلة الكبيرة التى يستمع فيها الناس إلى هؤلاء الشيوخ الذين يرتاون الموالد النبوية ، التى تتخللها قصائد المديح ، والتى يتغنون فيها تغنياً لم يكن ليستسيغه ، أو يقبله وهو قد كان يثقل عليه هذا القيام والقعود ، وهذه الصلوات والتسابيح التى كان يشترك فيها الحاضرون وينغمونها تنغيما ، فكيف به الآن وهذه الحفلات تطارده هنا فى سفينة فى البحر لايمكن الفرار منها أو البعد عنها ؟! وأخيراً قال الفتى لنفسه فلأذهب ولو على سبيل العلم بالشىء فان من الطريف ولاشك أن أستمع إلى هذا الشيخ أو إلى غيره يقرأ المولد الشريف فى سفينة أوربية فى وسط البحر الأحمر.

وهكذا كان ، فما غربت الشمس حتى سمع الفتى أذاناً فى السفينة فذهب إلى حيث الصوت فاذا صاحبه الشيخ يؤذن على حرف يجهر بالصوت يدعو المسلمين إلى الصلاة .

توضأ الفتى لأول مرة فى هذه السفينة وذهب إلى حيث الأذان فوجد الشيخ ومعه بضعة نفر من مسلمى الهنود المنقطعين بمكة من الفقراء الذين تعيدهم حكومتهم إلى وطنهم بعد انقضاء موسم الحج وبعد آن لايبقى لهم من المال ما يهيء لهم سبيل العودة إلى ديارهم ، وما لبث أن توافد على هذه الجماعة كثير من خدم الباخرة وموظفيها من المسلمين .

أقام الشيخ الصلاة ، ودعى الفتى إلى أن يتقدم للأمامة فامتنع فألح عليه الشيخ فلم يجد من سبيل إلا الاعتذار بمرضه فتقدم الشيخ وصلى بالجماعة ثم جلس الشيخ وتحلقت الجماعة حوله ، ودعى الفتى مرة أخرى إلى البدء بالتلاوة فاعتذر فما كان هو يحفظ المولد ، ولا يتقن قراءته ، ولا يحسن شيئاً من هذه القصائد الطويلة التى تتخلله ، وابتدأ الشيخ فى القراءة من «مولد البرزنجى» بعد أن أخرج من صندوق لديه لاحظ الفتى أنه كان مملوءاً بالكتب رسالة مطبوعة ، بها هذا المولد . واستمع الفتى إلى القراءة ، واضطر إلى المشاركة فيها فقد خجل من كثرة الاعتذار ، وتناوب القراءة مع الشيخ تعطيرة ، وتعطيرة ، أو فصلا وفصلا ، ولكن شعوره هذه المرة بالمولد وأثره ، وبهذا الاجتماع وخصائصه كان شعور فهم وتدبر وتفكير ، ولم يكن لشعور الضيق والتثاقل الذى كان يخامره حينما كان يحضر هذه الاجتماعات فى وطنه أى أثر ، أكان هذا لقوة العقيدة فى نفوس الشيخ والحاضرين ، هذه العقيدة التى بلغ من قوتها أن تحيى ليلة

المولد الشريف فى عنبر من عنابر سفينة أوربية تمخر البحر، أم كان لما سبق ذلك من حادثة غرفة المائدة وسخر الأوربيين وامتعاضهم من الفتى أثر فى ذلك ؟ أياً كانت الحالة فقد أثرت فى نفس الفتى روح الشيخ وصفاء عقيدته ، وقوة إيمانه فازداد له إكباراً وحباً ، وانفض المجلس بعد الفراغ من تلاوة المولد وصلاة العشاء وذهب كل إلى سبيله ، واستبقى الشيخ الفتى لديه .

قال الشيخ — بعد أن خلا المجلس —: أنت مسافر إلى الهند أم إلى عدن ؟ ولماذا تريد السفر ؟

حدث الفتى الشيخ عن مرضه وعن وجهته ، وتحدث الشيخ بدوره إلى الفتى فعرف إليه نفسه وطرفاً من تاريخه ، فاسمه — أكبر على — من رانقون ، وهو قد قدم إلى الحج كما يقدم إليه سنوياً ، ولكن نقوده قصرت أن تعود به فتنظر حتى سافر فى هذه الباخرة التى تنقل الفقراء إلى بلادهم دون نفقة ، وهو رجل درس العربية وعلوم الدين وتفقه فيهما ، ولهذا فهو لاينقطع عن الحج سنوياً ، وهو يعمل امام المسجد فى بلده ويقوم بوظيفة المأذون والمفتى وما شاء الله أن يقوم به أمثاله من هذه الشؤون فى ديارهم البعيدة .

حدث الشيخ الفتى كثيراً عن بلاده ولكن حديثه لم يكن منصباً على النواحى التى يتشوق الفتى إلى معرفتها ويرتاح إلى الحديث عنها ، بل كان الحديث خاصاً بالإسلام فى الهند والمسلمين والهندوس

والوثنيين الهنود ، الذين تنتشر بينهم دعايات التبشير المسيحية ة والذين يتغلغل المبشرون المسيحيون بينهم فيدخلونهم فى الدين المسيحى ، وينصرونهم .

كان الشيخ يذكر هذا وهو يتحرق أسىً ولوعة ، وقال فيما قاله : ان واجب المسلمين جميعاً أن تكون منهم بعثات تبشيرية لهداية هؤلاء القوم إلى الدين الإسلامى الحنيف ، فهم أولى بهذا وأجدر به ، ولكن مما يؤسف له أن المبشرين المسيحيين يحاولون أن يدخلوا المسلمين فى دينهم ويردوهم عن الهدى بعد إذ اهتدوا إليه . ثم قال : إن بلادكم — يعنى الحجاز — هى بلاد الدعوة الإسلامية الأولى ومهدها ومبعثها ، ثم هى البلاد الإسلامية الوحيدة التى ما زال الإسلام فيها بخير ، البلاد التى لاتضم إلا المسلمين والمسلمين فقط من كل جنس ومن كل قبيل فأنتم الأجدر بهذه الدعوة والأحق بها .

انكم تبعثون إلى بلادنا فى كل عام مئات ومئات يدعون الناس إلى الحج ، ولكننا نريد أن تبعثوا إلينا إلى جانب هذه المئات عشرات فقط يدعون الناس إلى الإسلام ، الذى ما كان الحج إلا ركناً من أركانه فقط فهلا فكرتم فى هذا وأعددتم له العدة وأخذتم بسبيله ؟

لا أريد أن أحدثك عما يفعله أبناء قومك هؤلاء الداعون إلى الحج أو على الأصح ما يفعله بعضهم مما يخالف الآداب أو لايليق بمكانتهم فلعلك تعلم طرفاً من هذا ، ولكنى أود أن تدققوا كثيراً فى اختيار هؤلاء الأشخاص الذين تبعثونهم إلينا ، وقد عامت أنكم

تبعثونهم إلى كل بلد إسلامى ، إلى مصر والشام وفلسطين والعراق وإيران وجاوة وقد كنتم تبعثونهم إلى تركيا والصومال والحبشة وأرتريا وإلى روسيا يوم أن كان فيها شيء اسمه الإسلام وإلى بخارى ؛ ولعل بعضكم ما زال يتسلل إلى هذه البلاد فى صفة غير صفة الدعاية فانى أعلم انكم تسعون جاهدين فى جلب الحجاج إلى بلادكم ، ولكن الناس الذين يقومون على هـذه الشؤون منكم ليسوا كلهم متحلين بالصفات الحميدة . والدعوة إلى الحج هى من حقكم بل أراها واجباً عليكم ، واجباً دينياً لأنها استجابة لأمر الله تعالى حينما أمر خليله ابراهيم أن يؤذن للناس بالحج ، فهذا الأذان من خليل الله هو واجبكم الآن يا أهل مكة ومن جاورها من البلاد ، وواجب اقتصادى لأن بلادكم ما زالت مفتقرة إلى الحجاج وإلى ما يرد منهم على الدوام ، فبلادكم لم تقم إلا بالدين وعلى اسمه وستبقى معتزة بهذا الاسم ما بقى الدين ، وقد ضمن الله له البقاء فواجبكم أن تعرفوا هذا وأن تعملوا له وتنظموا أمره . أرسلوا من شئتم للدعاية للحج ، ولكن لاتنسوا أن من واجبكم بل ان واجبكم الأول أن تدعوا إلى الله ورسوله ، وإلى دينه الحق لا المسلمين فقط ، ولكن كل إنسان من كل دين ، فلتبعثوا إلى هذه البلاد الإسلامية إلى بلادنا وإلى جاوة والصين وتركيا وبخارى والحبشة ومصر وغيرها إناساً يدعون إلى الله وإلى الإسلام ، ليزداد المؤمنون بهذه الدعوة إيماناً ، وليؤمن بها ويحبها من لم يعرفها من قبل .

قال الفتى : ان ما تقوله أيها الشيخ هو الحق ، والحق كله ، ولكن هذا الواجب إن كان قسمه الأكبر على بلادنا فلا تنس أن البلاد الإسلامية كلها ، أو علماء المسلمين وحكومات الإسلام على الأصح ، لابد أن تشترك فى هـذا الواجب ، وفى نشر هذه الدعوة والجهاد فى سبيلها والبذل لها ، ان من ذكرت ممن يأتونكم ويفدون إليكم للدعوة إلى الحج وجلب الحجاج هم جميعاً أو أكثرهم من طبقة غير متعلمة ، بل ان أكثرهم ليسوا من بلادنا ؛ فهم من بلاد أخرى فى الأصل ولعل أصلهم من الهند قبل أن يكونوا من الحجاز ، وقل مثل ذلك فى أغلب الدعاة الذين يسافرون إلى بلاد أخرى ؛ فالدعاة لمصر لعلهم من المصريين أصلا ، وبجاوة من الجاويين أصلا وهكذا ، وهم قد اختصوا فى بلادنا بهذه الأعمال وتفرغوا لها تفرغاً تاماً وحذقوها ، هؤلاء لايعرفون الحج والدعوة إليه وإنما يعرفون الحجاج وما يرد منهم فقط ولكنهم على كل حال قد أصبحوا منا وحسبوا علينا ، ولكن الإسلام يا سيدى ملة واحدة والمسلمين أمة واحدة ، وبلادنا أفقر ما تكون إلى العلماء ، العلماء فى الدين وفى غير الدين ، وأمامنا شوط طويل لابد أن نقطعه لتخريج العلماء وإرسالهم إلى الدعوة فى أنحاء العالم للإسلام والتبشير به ، وإنا لذلك فاعلون إن شاء الله .

لانعرف كيف نطق الفتى بهذا ولا كيف وردت هذه الخواطر على ذهنه فانطلق بها لسانه وهو فيما نعرف حتى الآن بعيد عن

أمثال ذلك ، ولعل لروح الشيخ وقوة عقيدته تأثيراً عظيما فى نفس الفتى أنطقه بهذا ، ولعل لما عرفه الفتى وهو فى بلده عن فقر بلاده إلى العلماء دخلا فى هذه الإجابة ؛ فهو قد شهد مرة كيف أخذ أستاذ من أساتذة مدرسته فى جدة أخذاً وعين فى وظيفـــة من وظائف القضاء بعد عزل القاضى السابق ، ويذكر كذلك كيف عين شقيق أحد أصدقائه فى وظيفة من وظائف القضاء فى قرية نائية من قرى الشمال ، إلى أمثال هذه الحوادث التى تواردت إلى رأسه تباعاً ، كما يذكر الآن كيف أنه حينما كان صغيراً حدثاً كان أبوه يصحبه معه إلى الجوامع ليحضر دروساً يلقيها بعض العلماء بعد صلاة العصر ، وبعد العشاء ، وبعد صلاة الصبح فى هذه الجوامع المختلفة . ثم يذكر بعد أن انتهى هذا الطور ، واستطاع الفتى أن يتخلص من أسر والده وجده ومن صحبتهما أنه ذهب مرة ومرة إلى المسجد فلم يجد ما كان يعهده من دروس ، وهو يذكر كيف سمع جده يتحسر على الأيام الماضية التى كانت الجوامع فيها تكتظ بالمصلين وبالعلماء والدروس وغير ذلك .

لعل لهذا كله أكبر الأثر فيما نطق به الفتى وأجاب ، وإن كان ليس ممن يحفلون بهذه الشؤون أو يفكرون فيها . على أية حال قد قال الفتى ما قاله وقد حمد لنفسه هذا القول حمداً ليس بقليل .

أتيح للفتى فى هذه الرحلة أن يستمتع برؤية بعض السواحل التى يتردد اسمها كثيراً فى وطنه ، والتى يسمع عنها أشياء كثيرة لعل أغلبها يتصل بالتجارة والتجار ، أكثر مما يتصل باللهو والمتاع ، ولكن للجديد طرافته ولذته ، على أى حال فقد رأى الفتى « عدن » وتجول فى حدائق الشيخ عثمان ومتنزهاته ، وأتيح له لأول مرة أن يرى بعض النساء السافرات مما لم يعهده فى بلده ، فهو لايعرف النساء فى بلاده إلا متحجبات يكسو أجسامهن هذا الحجاب الأسود الذى تختلف أصنافه ، ولا تختلف الغاية منه ، وحقاً انه كان يرى نساء الفرنجة فى جدة سافرات فى حللهن القصيرة الحريرية ولكنه يذكر جيداً أنه لم يستطع الجلوس إلى واحدة منهن أو تجاذب أطراف الحديث معها حتى بعد أن عرف طرفاً من الإنكليزية ، بل هو يذكر أنه لم يجرؤ أن يتحدث إلى هؤلاء الفرنجة من الرجال بانكليزيته الضعيفة الكليلة فقد كان أكره ما يكون إلى نفسه أن يبدو ضعيفاً أو متخاذلا ، أو محتاجاً إلى المعونة ، بل انه ليذكر أنه لا يمارس حتى فى الألعاب إلا اللعبة التى يتقنها فهو لايطيق أن يكون موضع سخرية أو موضع رثاء .

أما فى الشيخ عثمان فقد رأى نمطاً آخر من النساء ، نساء يمنيات وفارسيات ، ومن بلاد النوبة ، وأعجبته عربيتهن المتخاذلة ، التى هى خليط من اللهجات العربية والفارسية والنوبية ، وراعه كثيراً جرأة هاته النسوة على الرجال ، فقد كن من هؤلاء النسوة الشقيات اللاتى رمت بهن الأقدار ليكن سلعة للرجال ، ولم يكن لفتانا عهد بهذا

النمط من النساء ، كما لم يكن له عهد بأمثال هذه المجالس التى أتيح له أن يراها فى الشيخ عثمان فقد دعاه أحد تجار عدن ، وكان يحمل له كتاب توصية ، إلى قضاء الليلة لديه وأقام حفلة راقصة اجتمع فيها إلى هاته النسوة وشهد رقصهن وغناء أهل عدن ومجالس تطريبهم ولهوهم ، ولسنا فى حاجة إلى أن نقول أن الفتى قد سر بذلك كثيراً ، وأن شعوره كان مزيجاً من السرور والدهشة والمرح .

ولكن ليلة اللهو والسرور قصيرة على كل حال فقد آن له أن يعود إلى السفينة ، وآن للسفينة أن تترك عدن والشيخ عثمان ومجلس اللهو والرقص والنساء .

رست الباخرة بعد هذا فى ميناء المكلا ولكنها لم تقض به إلا سويعات أتيح للفتى فيها أن يتجول فى هذا الميناء ولعل الفتى حمد لقائد الباخرة إسراعه بمغادرة هذا الميناء فلم يكن فيه ما يعجبه وهو بمقارنته إلى عدن ، بل إلى جدة ، يعتبر كأنه خال من الحياة .

وسر الفتى من زنجبار كما لم يسر من المكلا ولكن عدن كانت فى رأيه أكثر بهجة وأفراحاً فان ليلة الرقص فى عدن لم تتكرر فى زنجبار ، ولعل لسرعة سفر السفينة أثراً فى هذا ، كما أن لجهل الفتى بالمدينة ومن فيها أثراً آخر ، إلا أن النظرة إليها فى رأى العين انها مدينة على شىء من الحضارة ، وليست كالمكلا تملأ النفس ضيقاً وحرجاً .

وهالت الفتى عظمة مدينة بومباى التى شهد فيها من مظاهر

الحضارة ما لم يعهده من قبل ، كانت المدينة فى رأيه عظيمة لم ير أعظم منها ؛ فالترام الذى يجوس خلالها ؛ هذه العربات التى تسير على قضبان حديدية مثبتة فى الأرض والتى يرتفع منها عمود طويل يتصل بسلك أو ماسورة من الرصاص الغليظ تقدح شرراً فى بعض الأحيان لم يعرف كيف تسير ولا كيف تدور فهو يرى فى هذا العمود شبهاً من المشاعل التى يحملها الرجال الذين يقومون على خدمة الحجاج فى طريقهم إلى عرفات ومنى وغيرهما من طرق الحج . وهو كثير الدهشة لهذه العربات التى يجر بعضها بعضاً والتى يحتشد الناس فيها حشداً وتتقاطع خطوط سيرها واتجاهاتها ، وتمتلىء بالناس وتخلو منهم فى دقائق قليلة ، حقاً انه لايعلم من أين أتى هؤلاء الناس جميعاً ان هذا الزحام الذى شهده فى المحطة لم يشهده من قبل إلا فى المواكب العامة فى بلده حينما يحتشد الناس لاستقبال ملك والترحيب بأمير ، أو الاشتراك فى حفل عام كحفلة المحمل يوم أن كان المحمل شيئاً يذكر .

ثم هذه المحلات التجارية والبضائع المعروضة بالحوانيت فى الواجهات الزجاجية من كل نوع ولون ، وهذه الشوارع الجميلة ، والميناء العظيم الممتلىء بالبواخر والمراكب التجارية والسفن ، وهذا الخليط العجيب المحتشد من الناس ، هذه البرانيط الكثيرة ، واللغط الكثير ، هذا الكلام باللغات الإنكليزية والهندية وغيرها من اللغات التى لايعرفها ، وأخيراً — ولعله كان يجب أن نقول أولا — هاته النسوة الأوروبيات والهنديات وغيرهن فى مختلف الأزياء يسرن بملابسهن

الأوروبية أو الوطنية سافرات جميلات وهذه الحياة المحتشدة ، وهذا القطار الذى تشبه كل عربة منه سفينة من السفن التى ترد إلى جدة كل أسبوع ، وهذه العربات الكثيرة التى تسير وراءه ، وهـذا الصوت المزعج الذى ينبعث من جوفه قوياً مروعاً ، ثم هذه السرعة التى يسير بها كأنها العاصفة تجتاح كل من فى طريقها . هنا ذكر الفتى ما كان يقرؤه وهو فى بلده عن النكبات التى تصورها الصحف لهذه القطر وعن ضحاياها والتى تنشرها صوراً لم تكن تمثل فى رأيه الآن إلا شيئاً بسيطاً من حقيقة الأمر .

أعجب الفتى بكل هذا وسره كثيراً التطلع إلى القصور الجميلة والشوارع المنسقة والبنايات المجهزة بكل الوسائل العصرية الجميلة المريحة ، ولم يدر أن ما رآه فى بومباى ليس إلا جزءاً يسيراً مما سيراه فى كراتشى وغيرها من المدن الجميلة العظيمة فى هذه البلاد .

وآن للباخرة أن تبحر من بومباى وأن تصل إلى كراتشى فرأى الفتى من عظمة المدينة واتساعها واضطراب الأحياء وتنوع ألوان الحياة فيها فنوناً وفنوناً ، جعلته لا يرى فى بومباى تلك العظمة التى رآها من قبل .

– ٦ –

قضى الفتى فى كراتشى أسبوعاً لعله أكثر الأسابيع التى قضاها حتى الآن لذة ، وسروراً . فقـد استقبلته على ظهر الباخرة جماعة من أهل وطنه الذين يعرفهم ويعرفونه ، ونزل فى بيت زنيل بالهنـد

وهو البيت الحجازى الأول فى تلك المدينة العظيمة ، ولعله البيت الحجازى الأوحد فيها ، واستقبله الزينليون بما عهد فيهم من الحفاوة والإكرام وكانوا قد أحيطوا بمقدمه خبراً فأرسلوا إليه من يستقبله ، وكان اللباس الحجازى الأصيل الذى يتمسك به هذا البيت وكل من فيه موضع دهشته العظيمة واحترامه فى نفس الوقت . قضى الفتى أسبوعاً عرض فيه على ثلاثة من الأطباء الكبار ، سئل من كل منهم عديداً من الأسئلة الدقيقة ، وفحص فيه مرضه فحصاً دقيقاً لم يعهده فى الأطباء الذين عرفهم فى بلده وكشف عليه بآلات لم يرها ولم يعرف عنها شيئاً ، ولكنه استسلم لكل هذا راضياً مسروراً فإن فرحته بدخول هذه البلاد ، ورؤيته لها ، واستمتاعه بما فيها حبب إليه كل شىء فيها حتى الطب والأطباء ، وهو بحكم طبيعته لايتطلب الطب ، ولايستمع إلى نصائح الأطباء .

لم يعط الفتى من الطبيب أى علاج ، فى هذه المدة ولم يسأل هو عن العلاج أيضاً ، وكان الطبيب يتكلم الإنكليزية أحياناً ، والهندية أخرى مع مرافق الفتى ويترجم إلى الفتى أسئلة الطبيب فيجيب عليها فينقل رده إلى الطبيب ، ولكن المرافق لم يكن يترجم إلى الفتى ما يعلق به الطبيب على هذه الردود ، ولا هذا الحديث الطويل الذى دار بين المرافق والطبيب فى آخر الأمر .

أتيح للفتى فى هذا الأسبوع أن يتجول فى هذه المدينة العظيمة ، وأن يركب الترام الذى شهده فى بومباى وأن يذهب إلى بعض الحدائق

العامة فى المدينة مساءاً ، كما أتيح له أن يشهد السينما لأول مرة فى ذلك المساء .

كان كل شىء يشهده الفتى فى هذه المدينة عجيباً فى نظره ، فكان هذا الأسبوع الذى قضاه سلسلة من الأعاجيب لا ينتهى إعجابه بشىء أو عجبه منه ، حتى يبدأ شىء آخر يملأ نفسه إعجاباً وعجباً .

الحدائق الغناء ، والمسارح ، ودور السينما ، والملاهى العامة ، وحديقة الحيوان ، والميادين الجميلة بما فيها من حدائق ونافورات ، وتماثيل الشوارع الفسيحة المرصوفة النظيفة ، المحلات التجارية ، والبنايات الفخمة ، المطاعم ، والشواطىء والسفن والمركبات والسيارات ، القطار والمترو أو غير ذلك مما يحتشد فى مدينة عظيمة كهذه المدينة ، النساء والرجال ، والحياة بكل أنواعها وفنونها ، وجمالها وحيويتها المتدفقة .

أين هذا كله من جدة وما فيها ، بل من أعظم مدينة فى بلاده وما فيها ، عرف الفتى هنا لأول مرة معنى حب الناس لبلادهم وإكبارهم لها ، واهتمامهم بشأنها . فهذه الحياة الجميلة العظيمة تستحق الآن فى رأيه أن يحياها الناس ، وأن يدافعوا عنها ، وأن يحبوها ويكلفوا بها ، ويحافظوا عليها خالصة من كل شائبة .

ما الحياة فى بلده ، إلا رجوع إلى الوراء ، فالناس هناك فيما يرى الآن لايعيشون ، وإنما يسيرون كالآلات فى حلقة مفرغة

لا مفر منها ، كل شيء فيها ككل شيء ، حياة كابية وطبيعـــة ميتة لا حس فيها ولا حياة .

وما له الآن يذكر بلده فينغص على نفسه هذه المتع الجميلة ، ولكن الشيء دائماً يحلو كلما قرن إلى ضده ، ودواعي الذكرى كثيرة ، فالبيت الذى ينزله حجـازى من فرعه إلى قدمه يأكل أهله ألواناً حجازية ويلبس أهلوه ملابس حجازية أصيلة ، ويتكلمون فيما بينهم باللهجة العربية الحجازية ، وإن كانوا يقيمون فى الهند ، ويتعاملون مع أهلها ويخالطونهم .

شهد الفتى رواية تمثيلية فى مسرح من المسارح الكبرى فى المدينة وأتيح له أن يشهد عظمة التمثيل والغناء وإن لم يدرك من ذلك شيئاً .

كان المسرح غاصاً بالناس من طبقات رفيعة ، النســاء فى ملابس السهرة الجميلة وفى مجوهراتهن اللامعة ، والرجال فى ملابس سوداء أنيقة محبوكة حاسرى الرءوس ؛ والكهرباء تنثر نورها فتزيد الوجوه الجميلة نوراً ، واللآلىء المضيئة لمعاناً ، وأزيح الستار ورأى التمثيل لأول مرة ، كانت الرواية كوميدية ظريفة ، وكان التمثيل باللغة الإنكليزية ، وأتيح للفتى أن يتابع الرواية . وإن لم يفهم كل ما دار فيها فهماً دقيقاً ، ولكنما أتيح له أن يفهم ذلك إجمالا من حركات الممثلين وتتابع المنـــاظر فى المسرح وكان يتخلل الفصول غناء مغنية هندية جميلة . أعجبه صوتها الشرقى الساحر وأناتها الحزينة العميقة التى تؤثر فى النفوس .

وهكذا كانت هذه الأيام البسمة التى قضاها الفتى فى كراتشى فاتحة عالم جديد أتيح له أن يدخله، فقد زار حدائق كثيرة منها حديقة الحيوان، ودهش كثيراً لرؤية الفيل وحركاته، كما سر كثيراً برؤية القردة فى أقفاصها الحديدية، وأمعن فى إيذائها ومداعبتها حتى صرفه مرافقه عن ذلك صرفاً. وتطلع الفتى إلى كثير من أنواع الحيوانات لعله لم يعرف أكثرها ولم يسمع باسمها إلا فى تلك الساعة، ولكن عجبه لم يكن ينقضى فكل شيء كان جديداً فى عينيه.

ولعل أكثر ما راعه كثرة السكان فى هذه المدينة العظيمة، وزحمة الشوارع واتساعها وامتدادها، وامتلاؤها بالحركة إلى وقت متأخر من الليل، حتى لقد كان يرى بعد ذلك أن الأمة لاتكون أمة، والوطن لايكون وطناً إلا بكثرة السكان، وأدرك لأول وهلة معنى ما كان يقرؤه فى الصحف عن محاولات الأمم الراقية زيادة سكانها وتحسين النسل فيما كان الشارع الواحد فى بومباى أوكراتشى يحتشد بعشرات الألوف من الناس ويزدحم بهم مما لم يكن تتيسر رؤية أمثاله على ضيق الشوارع فى بلده إلا فى زمن الحج حينما يسيل وادى ابراهيم بعشرات الألوف من الحجيج، وحينما تمتلأ مكة ومنى بمختلف الملل والنحل من أجناس المسلمين.

قال الفتى مرة لمرافقه: لو جمعنا سكان المدن الكبرى فى الحجاز جميعاً وأطلقناهم فى شارع من شوارع هذه المدينة التى تعيشون فيها لما ظهروا، فكيف تكون زحمة شارع واحد هنا أعظم من سكان قطر بأكمله؟!

قال المرافق : هذا هو الفارق بين الفقر والغنى ، بل بين الجدب والخصب ، بلادنا فقيرة لأنها مجدبة ، ولأن وسائل الحياة فيها لم تتقدم بعد ، ما يزال كل شيء فيها كما كان منذ أن كان لهذه البلاد شأن فى التاريخ ، انها تتقدم ببطء ، وتتقدم ولا تستمر فى تقدمها فتأتى عليها عصور أو عهود تعود فيها إلى الوراء ، و بمعنى آخر ، انه ليست هناك فكرة أو برنامج مرتب تحافظ عليه البلاد لتسير فى أدوار تقدمها المرتقب حسب خطة ثابتة . وإلى أن يحين الوقت الذى توضع فيه النظم للإصلاح ويرتب فيه كل شيء وتتوفر فيه الجهود لخدمة الأمة والبلاد ستبقى بلادنا فقيرة مجدبة قليلة السكان .

أما هنا فكل شيء يساعد على ماتراه ، الطبيعة الخصيبة ، ان الأمطار هنا فى الشتاء تستمر أياماً وأياماً ، والأنهار العظيمة تتدفق فى هذه البلاد فتحيل ترابها الأسود زروعاً وثماراً ، وجنات وأزهاراً ، والحياة تزيد وتنمو فى أمثال هذه الأجواء الطبيعية الجميلة ، والعلم فتح أمام الناس آفاقاً واسعة للحياة ؛ فكنوز الأرض تستخرج لينتفع بها الناس ، والمصانع تعمل لتسد حاجات البلاد ، وآلات النقل الحديثة كما ترى من سيارات وقطر وطائرات تقرب هذه المسافات الشاسعة وتطويها فلا يتكلف الناس فى قضاء مصالحهم وفى إيجاد روابط المصالح المختلفة بينهم . ومع هذا فان هذه البلاد ما تزال متأخرة فى رأى المتعلمين من أهلها وقادتها ، هم يطلبون لها أشياء كثيرة ، لعل أهمها الآن فى نظرهم هو الاستقلال ، فهم ما زالوا

محكومين لغيرهم ؛ يحكمهم الإنكليز، وتحكمهم أشياء أخرى غير الإنكليز، يحكمهم الجهل الذى ما زال يفرق بين هذه الأمة العظيمة الغنية ، وتحكمهم هذه الديانات المختلفة التى تجعل من بعضهم أعداء بعض ، والتى تجعلهم حرباً على أنفسهم وبلادهم ، فهنا الهندوكيون ، وهم الطبقة الغالبة ، ويليهم المسلمون وهم من الأقليات إلا أنهم أقلية محترمة مسموعة الكلمة مرموقة المقام ، ثم المنبوذون وهم الطبقة الشقية المضطهدة فى هذه البلاد ، وهناك طبقات أخرى وديانات أخرى لا يتسع المقام لسردها ؛ فالطوائف الهندوكية كثيرة ، والطوائف الإسلامية مختلفة ، وهكذا ، وكل ما تراه فى هذه البلاد من آثار للحضارة ومظاهر للتمدين إنما يرجع فضله إلى العلم والمتعلمين ، فالحكام أهل حضارة ومدنية فهم يدخلونها إلى هذه البلاد لأنهم لا يستطيعون الحياة فى بلد لم يستكمل وسائل الراحة والحياة الراقية ، ولأنهم إلى جانب هذا يربحون من وراء ذلك أرباحاً اقتصادية لا يستهان بها ، فهم بهذا يخدمون أنفسهم بتوفير وسائل الراحة لهم ، ويخدمون بلادهم خدمة اقتصادية كبرى لأن زمام المصالح والمنشآت الكبرى للبيوتات الإنكليزية والتجار الإنكليز ، وهم بعد هذا يدلون على الوطنيين بأنهم حضروا البلاد ومدّنوها ، ويتباهون فى العالم بذلك ، هذه هى سيطرة الاستعمار بل سيطرة العلم على الجهل . وهذا هو الفارق بين العالمين والجاهلين .

استمع الفتى إلى كل هذا بإعجاب ، لا يخلو من دهشة ، ولعله

لأول مرة فكر فى هذا مخالفاً طبيعته العابثة وسجيته المستهترة ، ولعل مصدر هذا التفكير هو إعجابه بهذه البلاد ومظاهر الحضارة فيها ، وحبه أن يعيش فى بلد تتوافر فيه كل هذه المظاهر للحضارة العظيمة فهو أينما ذهب وأنى حل وحيثما سار لايجد إلا عظمة تملأ جوانب نفسه ، وتطغى على إحساسه فتحمله على التفكير بعد أن يستوفى حظه من المتعة بما رأى والسرور بما شهد ؛ عظمة البناء ، وعظمة التجارة ، وعظمة المكان ، وعظمة التنسيق والتجميل ، وعظمة العلم ، وعظمة المساجد ، وكل شىء يراه كان فى رأى العين عظيما جسيما ، لهذا أصغى الفتى بسرور ودهشة وإعجاب إلى حديث صاحبه ، ورأى لأول وهلة أن ما قاله صاحبه حقاً ، وفكر كيف يمكن أن تحيا بلاده هذه الحياة وأن تنهض أمته هذه النهضة ، وكل ما فيها فقير حقير ؛ التجارة كاسدة ، والمدارس لا تفى بالحاجة ولا ببعض الحاجة ، والأقلية من المتخرجين منها فى حاجة إلى التعليم العالى الذى لايتوافر فى بلاده . والصحة متأخرة فالأطباء الوطنيون أقل من أصابع اليد الواحدة والدواء غير موفور، والمستشفيات تمثل للناس صورة من صور القبور ، والجهل ضارب أطنابه ، فالأدواء الكثيرة والعلل المختلفة تنخر فى أجسام الأمة ، وتهددها بالفناء والزوال ، والقادرون يتطلبون علاج أمراضهم فى مصر والهند بل وفى السودان . أى نعم فى السودان ، وآلمه كثيراً أن يكون السودان أعظم طباً من مكة ، عاصمة الإسلام وكعبة المسلمين ، وحالة

البلد الاقتصادية لاتبشر بخير ؛ فالناس إنما يعيشون على الحجاج
وعلى ما يرد منهم ، وقد أتيح له أن يرى دورين مختلفين لحالتى العسر
واليسر فى بلاده ، فهو يذكر الأيام التى كانت بلاده فيها تكتظ
بالحجاج من جاويين وهنديين ومصريين وسوريين وغيرهم من
أصناف الأمم الإسلامية المختلفة ويذكر ما كان عليه القائمون بأمر
هؤلاء الحجاج من مطوفين ووكلاء من حالة يسر وبذخ تسلكهم
فى عداد الأغنياء أو الوجهاء ، ثم يذكر بعد هذا حالتهم الحاضرة
وما آبوا إليه بعد أن انقطع وارد الحجاج وقل تعدادهم فى سنوات
الأزمة العالمية وبعدها ، وكيف أصبحوا فى حالة من الفقر والمتربة
أدالت دولتهم وأذلت كبرياءهم ، بعد أن باعوا الغالى والرخيص ،
وبعد أن استولى الدين وفوائد الدين على كل درهم ودينار وحجر
ومدر وفضة وذهب كان فى أيديهم إلا القليل منهم ، ذكر كل هذا
وذكر ما كان يقوله هؤلاء ، ان السيارات هى السبب فى كل هذا
البلاء ؛ فهى التى حالت بين الحجاج وبين القدوم إلى الحجاز
قبل موعد الحج بشهور طويلة كما كانوا يفعلون يوم أن لم يكن الحجاز
يعتمد من وسائل النقل إلا على الحمل ، وما يجرى مجراه من ذوات
الأربع ؛ فقد كان الحجاز يفيد كثيراً من قدوم الحجاج فى وقت
مبكر جداً ، إذ كان على من يريد الحج من أندنوسيا مثلاً أن يغادر
بلاده قبل ستة شهور أو سبع ليصل إلى مكة فيتمتع بالبقاء فيها
شهوراً وشهوراً ويذهب إلى المدينة فيقضى بها ما شاء الله أن يقضى

من شهور وأسابيع ، ولم تكن الواسطة إذ ذاك إلا الجمل وهو نتاج وطنى يشغل أيدياً وطنية كثيرة فى رأيهم ،ونسوا أن الجمل هو الحيوان الوطنى فى الأمر كله وما بقى بعد ذلك كله خارجى كالسيارة سواء بسواء ، والواقع أن الارتبـاك الاقتصادى الذى أحدثته السيارة، أو على الأصح الذى أحدثه اختـلاف وسائل النقـل من الحيوان إلى الآلة لم يكن يسير الهضم فقد ذهب بثروات كثيرة ؛إذ أقدم على العمل والمغامرة فى التيار الجديد كثيرون لايعرفون من هذا الأمر شيئاً ،وكان لابد وأن يكون لهذه المزاحمة أثرها على رؤوس الأموال وعلى المستهلكين معاً ، أثرت على رؤوس الأموال لأن التنـافس أدى إلى رخص الأجور فقد كانت بعض الشركات تحمل الحجاج بأجر بسيط لايقوم بما يجب لإدارة السيارات وأعمالها من مصاريف وتكاليف وأثرت على المسـتهلكين – نعنى ركاب السيارات – لأن أغلب الشركات لم تكن مستعدة الاستعداد الكافى ،ولأن المستهلكين أنفسهم كانوا يبحثون عن أرخص الأجور دون نظر إلى جودة السيارة ومدى استعدادها، فلما انتظم الأمر وأحكمت الإدارة أصبحت السيارات عملا مربحاً ذا أثر بعيد فعال ، فما دفعته البلاد أولا من خسارة الكثيرين وفقدان ثرواتهم إنما كان ثمن الراحة والتمدن ، والنقلة من عصر الحيوان إلى عصر الآلة ، وهكذا كل أمر لايفكر فيه قبل عمله لابد له من خسارة تختلف باختلاف قيمة المغامرة ومقدارها .

فكر الفتى فى هذا كله وفيما يجرى مجراه ، ولكن الحياة هناك

لم تكن تتيح له فرصة التفكير المستمر فى هذا وأمثـاله ، كما أن طبيعته اللاهية لم تكن تساعده على إطالة الفكر وأعمـاله فيما يرى وما يسمع ، وأخيراً قطعت عليه مجرى تفكيره هذا الرحلة المرتقبة التى كانت تعد له إعداداً والتى لم يكن يدرى عنها شيئاً فقد كان عليه أن يغادر كراتشى إلى « جوكولا » فى ريف الهند الجميل .

— ٧ —

كان القطار ينهب الأرض نهباً وهو يودع المدينة ،ولم تستوقف زحمة المحطة ولاحركتها ولا عظمة البناء فى هذه المرة نظر الفتى فقد تعود هذا كله وألفته عيناه ، واستراحت إليه نفسه فهو إنما يرى شيئاً أصبح معروفاً له وحبيباً إليه ، وهو قد كان يفكر فى فراق هذه المدينة التى أحبها والتى لم يتعرف إليها إلا منذ قليل ، ولكن أكان مختاراً فى هذا الوداع ؟ لقد علم أخيراً أن الطبيب الذى فحصه هو الذى أشار بهذه الرحلة إلى قلب الريف الهندى فى مستشفى عينه هناك .

وكانت بالفتى رغبة فى أن يرى كل يوم بل كل ساعة جديداً ، ولكنه وقد أحب المدينة العظيمة فهو لا يود أن يبرحها هكذا سريعاً خصوصاً وأنه علم أن إقامته فى هذا الريف قد تطول كثيراً .

كان للفتى فى رحلته تلك متاع نفسى عظيم فلم تقع عينه منذ أن فارق العمران إلا على مزارع خصيبة وخضرة مونقـة ، وعيون متدفقة ، وحياة خصيبة مترعة فيها للعين راحة وللقلب بهجة وللنظر متاع ما بعده من متاع .

واستوقف نظر الفتى واد خصيب تتوسطه غابة خيل إليه من تشابك أغصانها ، والتفاف أعوادها وتدفقها بالخضرة والزهر أنها صورة من الجنة التي وعد المتقون ،ولاحظ رفيق الفتى — وهو الحجازى الذى كان يرافقه فى كراتشي و يوقفه على أعلامها— سرور الفتى ودهشته بما رأى ، فقال له : كيف أنت يا صديقى ، أمسرور بما ترى وتشهد من آيات الله فى هذا الريف الجميل ؟ .

قال الفتى : وكيف لا يسر من يرى كل هذا الجمال ، وكل هذه الحياة البديعة ، انى ليخيل إلىّ أنى فى حلم من الأحلام ، فما هذه الدنيا الفاتنة التى تعيشون فيها وتحيونها إلا صورة من صور الجنة الموعودة يوم المعاد ! ! .

قال صاحبنا — وكان أريباً — : ولماذا ؟ ألم يسبق لك أن شهدت فى بلادنا مثل هذا ؟ تنهد الفتى من قلب مكلوم وهو يقول : بالله دع عنك هذا فأين نحن الآن وأين بلادنا من هذا النعيم المقيم ، اننا نعيش فى واد والعالم فى واد آخر ، إن بلادنا يا سيدى ينقصها الماء ، الماء الذى يشربه الناس ، فضلا عن الماء الذى تروى به الأشجار وتحيا عليه الثمار .

إن جدة — وهى المدينة التى نشأت بها — ليس فيها حديقة واحدة يرتاح إليها النظر أو يسرح فيها الطرف ، بل ان الناس فيها إنما يعيشون على أنواع متعددة من الماء ، منها ما يقطر من البحر وهو ماء الشرب للمترفين ، ومنها ما ينبع من عين بعيدة عن المدينة

وهو ماء فيه كثير من الملوحة ، وهو شراب الفقراء والمعوزين . وهناك ماء ثالث هو ماء الآبار المالحة وهو ما يشترك فيه الجميع وهو يستعمل لكل شيء فيما عدا الشرب ، ولو ساغ لحلق آدمي أن يسيغه لوجد في بلادنا من يسيغه ممن لا يقوى على شراء الماء المقطر أو الماء العذب .

قال صاحبنا — وقد أخذته غصة وشاعت أمارات الاستغراب في وجهه — : ولكن لماذا لا تسحب المياه من الأودية الخصيبة ، والعيون الكثيرة القريبة من جدة كوادي خليص وغيره من الأودية الشهيرة بالمياه والعيون ؟ وقد قرأنا من قبل تقارير تؤكد إمكان سحب هذا الماء وإيصاله إلى المدينة وهو ماء صالح كل الصلاحية ، بل لقد كنا نظن أن المشروع الذي فكر فيه قد نفذ وأن الناس قد ارتاحوا إلى هذا الأمر وخلصوا من هذه القضية .

قال الفتى : إنما هذا كلام يقال ، والناس ينتظرون دائماً من الحكومة أن تفعل ، ولكن الأزمة ، الأزمة الاقتصادية العصيبة التي يعانيها العالم كله لا تساعد بلادنا على إنفاذ شيء من ذلك .

وهنا استوقف الفتى ورفيقه منظرٌ ساحر لضيعة جميلة بني فيها بيت صغير على طراز أنيق ونسقت حولها حديقة مونقة زاهرة تبدت الفتنة فيها واضحة حتى تكاد أن تنطق وتتكلم — كما يقول البحتري. فسأل الفتى صاحبه : لمن هذا المنزل وهذا البستان؟ أهو لأمير القرية أم وزيرها ؟ فضحك صاحبنا وقال : كلا إنما هي لفتى من أغنياء

القرية الذين يحبون المحافظة على أرضهم وزراعتهم بالبقاء إلى جانبها ، وسترى كثيراً من هذه البيوت الأنيقة ، والضياع الواسعة فى هـذه الرحلة عما قريب .

قال الفتى : ولكننا لانعرف إنه يوجد فى مكة كلها بستان إلا لأمير أو وزير ، حتى لقد ظننا أنه لايمكن أن يكون البستان إلا لأمير أو وزير أو من يقوم مقامهما من الناس .

قال صاحبنا : فانك سترى كثيراً من الأمراء والوزراء هنا على هذا الاعتبار . وتضاحكا . وآن للرحلة أن تنتهى بعد مغرب الشمس ، وأن يقف القطار وقفته الأخيرة عند « جوكولا » وهى القرية التى اختير له أن يقضى بها شهوراً وأعواماً لايعرف هو ولا غيره ماذا يكون تعدادها .

كانت فى استقبال الفتى ورفيقه سيارة استقلاها إلى فندق جميل وكانا متعبين فتناولا عشاءهما وآوى كل منهما إلى سرير مريح ، وقضى الفتى ليلة هادئة لم يتخللها صحو . استيقظ فى البكرة وانطلق إلى الشرفة فاذا هى تطل على حديقة زاهرة وكان الجو مشبعاً برائحة الأزهار ، وبأنفاس الصبح الوليد فكانت للفتى من هذا وذاك فرحة كفرحة الطفل بالعيد ، أو فرحة الطفلة بالثوب الجديد .

وهبط الفتى إلى الحديقة يجوس خلالها ويتحسس أزهارها وأوراقها الخضراء بيديه ويرشف الطل المتلألىء على الأغصان بفم عطشان ، وينشق الأزهار ويضاحك الأطيار كأنه عصفور عاد إلى وكره ، أو حبيب يفرح بلقاء حبيب .

ودُعى الفتى إلى المائدة فوجد صاحبه قد سبقه إليها فتناولا فطورهما ، والفتى يتحدث بشوق وإسهاب ، والرفيق يصغى بسرور فقد أعجبه أن ارتاح الفتى إلى حياته الجديدة التى قدر عليه أن يحياها .

— ٨ —

ذهب الفتى وصاحبه فى الضحوة لزيارة المدينة الصغيرة ، فأعجب الفتى بها أيما إعجاب وسره أنه رأى بها صوراً شتى من المدن العظيمة التى أحبها ، وسره أكثر بساطة الحياة وجمال الطبيعة وصحوها ، ونشاط الهواء ورقته فى آن معاً ، ووقف الفتى ورفيقه أمام بناء كبير من طابقين تحيط به حديقة غناء واسعة مترامية الأطراف لم ير الفتى فيما مر به من معالم المدينة ومباهجها بناءًا أجمل منه ، ولا حديقة أكبر منها ، ودخل الفتى ورفيقه إليها وعرجا على الحديقة يطوفان بها. واستوقف الفتى ما فيها من تماثيل ، وتهاويل ، وأشكال من الزهر والثمر لم يعرفها ، ولم يسمع بها ، ولم يستطع الفتى ولا رفيقه أن يصلا إلى نهايتها فقد كانت واسعة الأرجاء كأنها مدينة كبيرة فيما يصور له الخيال الوثاب .

وفى مدخل البناء دلف الرفيقان إلى غرفة مدير المستشفى ، وقال المدير بعد حديث قصير مع صاحب الفتى :

إذاً فهذا هو ضيفنا الجديد . مرحباً بك يا بنى ، وخرجوا جميعا يقودهم مدير المستشفى إلى غرف المستشفى وحجراته فأعجب الفتى بما شهد أيما إعجاب واسترعى انتباهه قبل كل شىء الهدوء الذى

يسود حجرات المرضى والممرات النظيفة والأبهاء الأنيقة الجميلة الواسعة والعناية التامة ، وبعد انتهاء الزيارة ودعهم المدير بعد أن تحدث إلى صديق الفتى على انفراد، وعاد الفتى ورفيقه إلى نزلهما فتناولا غذاءهما ، وجلسا يتحدثان ، وفى هذه الجلسة أفهم صاحبنا رفيقه — الفتى — أنه سيعود من فوره إلى بومباى لأن عملا سينتظره هناك ، وتلطف فى إفهامه بخطورة مرضه فقد كان « مصاباً بالدرن فى أولى درجاته » . وهنا شرح له باسهاب ما يجب عليه لنفسه من عناية ، وقال له فيما قال : إنك ستقضى هنا فى المستشفى الذى زرناه صباحاً عدة أسابيع وستكون تحت ملاحظة الأطباء ، وقد قرر الطبيب الذى زرناه معاً فى بومباى أن تقضى هذه المدة هادئاً وأن تفعل كل مايطلب منك فعله ، ولن يطلب منك سوى أن تتغذى جيداً وأن تنام كثيراً، وأن تكون دائم الابتسام والسرور، ومن ذا الذى لايود أن يعيش لا لعدة أسابيع وإنما لعمر طويل هذه العيشة السعيدة الراضية ؟ وان الطبيب لواثق ، وأنا كذلك، بأنك ستنجو من مرضك ، الذى لايعد خطيراً حتى الآن ، فى وقت قصير ، وسأعود إليك بعد أسابيع لأراك وأطمئن عليك ويمكنك أن تكتب إلىّ على الدوام وستجد فى المستشفى كل ماتحتاج إليه ، وقد أحضرت لك مجموعة من الكتب العربية لتتسلى بقراءتها فانه ليس لديك مايشغل أوقات فراغك الطويل ، وحزن الفتى قليلا لما سمع ولكن رفيقه لم يتركه إلا بعد أن سرى عنه ، وبعد أن أخذ عليه عهداً صادقاً بأن يعنى كل العناية بشؤون صحته ، وأن يصغى إلى نصح طبيبه كما يحافظ على تنفيذ تعليمات مدير المستشفى تماماً .

وتصافحا وركب الرفيق القطار عائداً من حيث أتى ، وعاد الفتى إلى المستشفى بما لديه من أمتعة قليلة ليفتتح به عهداً من عهود حياته لم يعرفه قبل الآن .

– ٩ –

كانت غرفة الفتى بالمستشفى أنيقة هادئة تتوسطها نافذة تشرف على حديقة المستشفى الغناء وفى طرف منها السرير الأبيض بملاءته البيضاء وفرشه الناصع البياض ، وفى الطرف الآخر مقعد طويل للاستراحة وبالحجرة دولاب للملابس ومائدة صغيرة وزهرية تعلو دولاباً صغيراً آخر إلى جانب السرير ، وكان البياض هو اللون الغالب الذى تتميز به الحجرة بل يتميز به المستشفى كله وكان الهدوء والسكينة هما الصفتين اللتين تتميز بهما الحياة فى هذه الدار الرحبة الواسعة الأرجاء الكثيرة السكان .

كان النظام اليومى فى المستشفى بديعاً فى نظر « أسامة » فى أيامه الأولى ؛ فقد كان يستيقظ فى البكرة المطلولة فيخرج إلى حديقة المستشفى حتى يحين موعد الإفطار فيذهب إلى غرفته لتناول إفطاره ويقضى بها قليلا من الوقت للراحة ، وفى الضحوة يخرج إلى الفناء الخارجى فيقضى به بعض الوقت في القراءة والحديث مع من يكون هناك من سكان المستشفى ونزلائه ، وقبيل الظهر يعود إلى غرفته استعداداً للغـداء تعقبه إغفاءة تمتد إلى وقت العصر حيث يتناول الشاى ويتريض فى أرجاء الحديقة الواسعة وقبيل الغروب يعود إلى غرفته فيتناول عشاءه ويقضى قليلا من الوقت فى القراءة ثم يجبر على النوم

المبكر باطفاء النور المعد للقراءة ، ولكن فتانا ضاق ذرعاً بهذا النظام بعد أسبوع أو أسبوعين ، وشكا ذلك إلى الطبيب الذى كان يفحصه فى أيام متوالية بنظام معين ، وكانت صحته تتقدم باستمرار ، وكان الغذاء الجيد والنوم المبكر ، والرياضة المنتظمة ، والهواء النقى قد أفادته صحة وعافية ، وقد وعده الطبيب بأنه إن سار على هذا النظام فان صحته ستزداد تحسناً وسيسمح له فيما بعد بمغادرة المستشفى فى بعض الأوقات للفسحة فى المدينة ، ونصح له فى نفس الوقت بأن يشغل نفسه بهواية من الهوايات الفنية التى يميل إليها ليقضى على الضيق والبرم من حياة المستشفى الرتيبة . وتفرغ فتانا لدراسة اللغة الإنكليزية التى يعرف منها بعض الشىء بعد أن رأى أن لغته العربية لاسوق لها فى هذه البلاد ، وبعد أن رأى أن اللغة الإنكليزية هى اللغة العليا هنا ، وكان حتى الآن يجد صعوبة شديدة فى التفاهم بها فيستعين بكلمات قليلة من اللغة الهندية التى التقطها أثناء إقامته القصيرة ويضيف إلى ذلك كثيراً من الإشارات وبعض الكلمات العربية ليصل إلى مايريد ، وكان هذا شاقاً فى البداية ، ومضحكاً أيضاً ، ولكنه ما لبث أن وطن نفسه عليه ، وأن وطن مخاطبوه أنفسهم على قبوله وتحمله فسارت الأمور سيراً أقرب إلى العادى ، ولكنه كان ومازال يشعر بهذا النقص فى كل خطوة يخطوها ، أوغاية يعبر عنها وكان هذا كما قلنا أصبح عادياً بالنسبة للمتصلين به من أطباء وممرضين وممرضات وخدم ، ولكن الصعوبة كانت تتجدد حينما يريد التحدث إلى نزلاء المستشفى الذين يلتقى بهم فى الحديقة

وفى الفناء وفى أبهاء المستشفى وحجراته ، كما قدر أنه سيكون مشكلة كبرى حينما يسمح له الطبيب بالتجول فى المدينة وارتيادها ، لهذا قرّ عزمه على دراسة اللغة الإنكليزية والتمكن منها قدر مايستطع .

حاول الفتى أولا أن يدرس على انفراد ولكن مساعيه كلها ذهبت أدراج الرياح ؛ فقد كان يحفظ الكلمات ولكنه لايحسن نطقها أو ينطقها نطقاً ملتوياً معقداً يبعد عن الصحة فى كثير من الأحيان. وكانت التراكيب تتعبه وتثقل عليه فرأى أن هذا عبث لافائدة منه . لهذا عاد إلى مايحفظ من كلمات صحيحة تعلمها على أيدى أستاذ قدير فى الحجاز فدونها وحفظها واستعادها وأخذ يعيد ماقرأه ولكنه مالبث أن سئم هذا كله بدافع من طبيعته القلقة المترددة فنفض يده من هذا كله آيساً ، إلى أن كان ذات يوم يشرب الشاى فى فناء المستشفى المواجه للحديقة ، وإذا رجل هندى يقرئه السلام ويجلس إليه فيجاذبه أطراف الحديث بلغة هى خليط من العربية والإنكليزية والأوردية ، وتعارفا على قدر ماتسمح لغتهما أو لغاتهما المشتركة على الأصح — فنفض فتانا إلى صاحبه القصة فى أسلوب مختصر ، ونفض — عبد القهار صاحب — فهذا إسمه — قصته وهى تتلخص فى أنه هو أيضاً مصاب بالدرن فى أولى درجاته وأنه قضى بالمستشفى مايقرب من عام ولكن صحته قد تماثلت للشفاء وربما سمح له بمغادرة المستشفى بعد شهرين أو أقل ليقيم فى المدينة إلى أمد معين ، حيث يستكمل شفاءه ومن ثم يعود إلى بلده فى (حيدر آباد دكن) وقال فيما قال : إنه حضر مرة إلى الحج وعرف قليلا من العربية أثناء

إقامته بالحجاز وذكر له أسماء أناس يعرفهم فى مكة وجدة والمدينة عرف الفتى بعضهم وأنكر البعض الآخر ، وقد علم صاحبنا بأمر الفتى من موظفى المستشفى فأحب أن يتعرف إلى عربى مسلم من مكة ليتذاكر معه أو ليتعلم عليه على الأصح قليلا من اللغة العربية ؛ فانه كان منذ ذهب إلى الحجاز حاجاً يفكر فى العودة إليه لافتتاح مل تجارى هناك .

قال الفتى : وما الذى يدعوك إلى أن تغادر هذه البلاد الجميلة وفيها أهلك وموطنك لتهاجر إلى بلاد فقـيرة نائية لاتعرف لغتها ولا أهلها ولا شؤون الحياة فيها ؟ .

فتبسم «عبد القهار صاحب» ابتسامة من يرثى لحال محدثه وقال : انك واهم فيما قدرت من أمرى وأمر هذه البلاد يابنى ، كما إنك واهم فيما قدرته من أمرك وأمر بلدك . حقاً إن الحياة جميلة هنا ، ولكنها جميلة للأغنياء والمترفين ، الذين يتدفق عليهم الذهب ، أوالذين ولدوا وفى أفواههم ملاعق من ذهب — كما يقول شاعركم العربى القديم فيما سمعته عنكم — ولكن الفقراء أمثالى ، وأنا فقير ، فلا يغرنك ماتراه من إقامتى فى هذا المستشفى الكثير النفقة فانى أقيم على حساب غيرى ، ولكن لهذا حديثاً آخر سيأتى فيما بعد ، أقول ولكن الفقراء أمثالى قد لايجدون هنا وفى هذه البلاد الجميلة الغنية مايقيم الأود أو يحفظ الحياة ، فالتزاحم شديد وخصوبة البلاد أو جمالها أو حسن موقعها قد تكون شراً على أهلها وليست خير عليهم ، بل قد تكون شراً لايخالطه شىء من الخير ، فان خصوبة الأرض وحسن الموقع

يغرى الأغنياء من الأجانب باستعمار البلاد استعماراً سياسياً واقتصادياً إن أمكن ، أو استعماراً إقتصادياً إن لم يتيسر الاستعمار السياسى ، وليس الاستعمار السياسى إلا وسيلة للاستعمار الاقتصادى فحسب ، ولكن الفرنجة ، والإنكليز على وجه الخصوص يجعاون الاستعمار السياسى هو الغاية المعرضة للأنظار ، ويستغلون الشعب المحكوم لهم اقتصادياً وسياسياً ، فاذا ماتنبه هذا الشعب يوماً إلى حقه المغصوب لم يفكر أولا إلا فى رفع نير الاستعمار السياسى وحفظ كرامة البلاد وعزتها . هنالك يلجأ المستعمرون إلى المساومة على هذا الاستقلال باعتبار أنهم هم المسؤولون عن الأمن فى هذه البلاد وعن المدنية فيها وعن أرواح الأجانب وصيانة ممتلكاتهم ، إلى آخر هذه التعلات التى حذقها هؤلاء القوم حذقاً لامزيد عليه ، فلا يمنحون هــذا الاستقلال ، وإنما يؤخذ منهم قطعاً صغيرة أو أجزاء متناثرة على حسب قوة الشعب الآخذ ومدى حيويته وتسانده ، واتحاد هيئاته وقادته ، فهم يلوحون بالدستور أولا ويجعلون من هذا الدستور أداة للتفريق بين القادة والزعماء ، ووسيلة من وسـائل الإغراء والتمويه ، يرمون هذه الكرة الذهبية التى اسمها الدستور ليتقاذفها الزعماء والسـياسيون والقادة فيختصمون عليها ويتحاربون فى سبيلها فينصرفون عن المطالبة بالاستقلال وينقسمون أحزاباً وشيعاً ، فان من أول مبادىء الحكم الدسـتورى وجود أحزاب تتناوب الحكم ويعارض بعضها بعضاً .

بأمثال هذه الوسيلة يقف الحاكم موقف المتفرج ويترك الشعب

المطالب باستقلاله يحارب بعضه بعضاً ويترك الزعماء والقادة يمزق بعضهم أعراض بعض ، ويطعن بعضهم شرف البعض الآخر وأمانته ونزاهته حتى يداخل الأمة نفسها الشك والريبة فى أمانة الزعماء وشرف القادة ، وما داخلت الريبة قلب شعب فى قادته ، وما لامس الشك نفوس أمة فى زعمائها ، إلا وانصرف الشعب عن هؤلاء القادة ، وانفض من حول الزعماء ، وأصبحت القضية التى كان يسعى الجميع فى سبيلها قضية خاسرة ؛ لأنه ليس هناك من يؤمن بها ويضحى فى سبيلها ، هنالك تنقلب الأمة على زعمائها فتفتك بهم وتفقدهم ، وهناك تلعب الأيدى الأجنبية لتفيد من كل هـذا الاضطراب ولتوجهه الوجهة التى تفيد منها قضية الحاكمين وتخسر بها قضية المحكومين . وفى ساعة من ساعات التجلى تنكشف هذه الغمرة فيتنبه الشعب إلى اللعبة الشيطانية التى سلطها حكامه عليه ، ويستيقظ القادة ينفضون عن وجوههم غبار المعارك الكاذبة فيعرفون أى خدعة خدعوا بها ، هناك يتساندون فى الدفاع عن حقوقهم وحقوق بلادهم ، وهنالك يقفون صفاً واحداً لا تمزقه الأهواء ، ولا تغريه المطامع لأن هذا كله قد جربوه وذاقوا حرقاته ، ومن وراء هؤلاء الزعماء أمة آمنت بحقها ، وأقسمت أن تموت دونه ، هنالك يرى الحكام أنه قد آن لهم أن يساوموا على ما بأيديهم فيأخذ الشعب بعض حقه من الاستقلال ليأخذوا هم أكبر نصيب من خيرات البلاد واقتصادياتها ، ومن هنا دخلت فى معاهدات الشرق النصوص على حقوق الأفضلية للشعوب الصديقة والحليفة . ومن السهل بعد زمن يطول أو يقصر ،

وبعد جهاد كبير على كل حال أن تنال الأمة حقوقها السياسية ، واستقلالها السياسى ، ولكنه ليس من السهل ولا من اليسير أن تدرك أمة كانت مغلوبة على أمرها حقوقها الاقتصادية وأن تحقق آمالها فى استقلال اقتصادى إلا بعد أن يبلغ هذا الشعب رشده ، وبعد أن يبلغ حكامه من القوة مبلغاً يسمح لهم بأن يضربوا الضربة القاضية « ودون أى اعتبار » على كل أجنبى يستغل البلد الذى ينزله اقتصادياً ، ولهذا أو ذاك وسائل تعرفها الحكومات الرشيدة القوية ، فنحن الآن فى هذه البلاد الغنية الخصيبة مستعبدون سياسياً واقتصادياً يفرق الإنكليز بيننا بالاختلافات الدينية والمذهبية ويفرقون بيننا بالدستور وبأشياء أخرى غير الدستور وغير الخلافات الدينية ليس هذا مجال بحثها الآن ، فالفتى الطائل الثراء هو الذى يستطيع الحياة فى هذه البلاد ممتعاً منعماً ، أما الفقير فانه قد لايجد مايقيم أوده ، يحرث الأرض ويزرعها ولكن لايأكل من ثمراتها إلا العفن ، وينسج القماش ويحوك الحرير ولكنه لايلبس إلا الخيش ، ويبنى المنازل ولكنه ينام على قارعة الطريق مطارداً من الشرطة والبوليس ، ويربى الماشية ويسمنها ولكنه لايأكل منها إلا العظام ، فى بلادنا الأنهار والعيون ، ولكننا لانشرب إلا الماء القذر ، هذه حياة الفقراء فى هذه البلاد الخصيبة الجميلة ، بلاد الطبقات والاستعمار . فكيف لايفكر مثلى فى العودة إلى بلادكم وهى على فقرها الظاهر أهنأ حالا وأنعم بالا مما نحن فيه ؟ .

قال الفتى : وأى عمل تستطيع أن تعمله فى بلادنا ؟ إنك

لاتحسن العربية حتى تحصل على وظيفة فى الحكومة ، ولست من أرباب الصناعات ، فيما أظن ، وحذاقها حتى تعمل مهندساً فى السيارات ، أو مكائن الكهرباء فى بيوت السادة والأغنياء ، أو فى مصانع الحكومة ودورها ؟ ولا يمكن أن تكون يوماً ما مطوفاً أو زمزمياً أو دليلا فى مكة والمدينة ، ولست غنياً كما تقول لتفتتح محلا تجارياً تزاحم به التجار هناك وهم طبقتان ، طبقة المستوردين من الهند وأوروبا وهؤلاء أغنياء البلاد وسراتها الذين تقدر ثرواتهم بألوف الجنيهات الذهبية ، وطبقة صغار التجار الذين يشترون من المستوردين فيبيعون بالتفرقة والتجزئ للمستهلكين ، ولعلك لاتعلم أن هذه الطبقة من التجار تكاد تنحصر الآن فى بلادنا فى بعض الأجناس من المهاجرين الذين زاحموا أهل البلاد ذاتهم فاضطروا أن يتخلوا عن هذا العمل لهم ، ولا أظنك بمستطيع ياصاحبى أن تعيش عيشهم فانك رجل تحس وتشعر وتطلب المتاع والحياة ، وهؤلاء إنما يحسون الربح ويشعرون بالدرهم والدينار ، ويطلبون المتاع فى الحرمان والحياة فى جمع الذهب وتمويل المال . ولا أراك بعد هذا قوى البنية لتعمل فاعلا أو سقاءاً تنقل الماء من العيون أو الكنداسات إلى البيوت ، فالصناعات فى بلادنا محدودة كما ترى وأنت رجل تتطلب المتاع والراحة وهما ليسا ميسرين عندنا ، بل إن أسبابهما منعدمة كما ترى : وإنى لأنصح لك أن تبقى فى بلدك فقيراً محروماً خير لك من أن تهاجر إلى بلد غريب لاتستطيع أن تتمتع فيه حتى بالوسائل الراقية من الحياة المباحة للأغنياء والفقراء عندكم على السواء .

قال عبد القهار : وكيف ذلك ؟

قال الفتى : إن العلم ياصاحبى قد منحكم من وسائل الرفاهية والتمدين مالا يستطيع مال الأغنياء أن يمنحه لهم فى بلادنا . إنى لأعرف الكثير من بلادكم المترامية الأطراف ، ولكنى لم أر فيما يراه الزائر حتى الآن شيئا إلا وكان موضع عجبى وإعجابى ، إن بلادنا ماتزال حتى اليوم تشرب من ماء الآبار أو العيون وهى مياه ليست بالمعقمة ولا النظيفة ، بل هى مباءة للحشرات والهوام ، والأفاعى والثعابين التى تعيش فيها ؛ لأن هذه الآبار مفتوحة ومعرضة للأقذار والمكروبات ، وأنتم تشربون الماء صافياً معقماً صحياً نظيفاً بثمن بخس أما نحن فندفع فى هذا الماء القذر مالا يخطر لك على بال ، بل إن فى بعض المدن يدفع المتوسطون نصف دخلهم تقريباً لقيمة الماء فقط . هذا عن الماء الذى هو أول مقومات الحياة والذى يقول فيه الله سبحانه وتعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حى » ، ثم إن الحضارة والعلم بذلا لكم المستشفيات ؛ فالمريض هنا وإن كان فقيراً ومعدماً لابد وأن يجد حاجته من العلاج والتطبيب ، يجد الطبيب الذى يعالجه بأجر زهيد أو بغير أجر ، ويجد المستشفى الذى ينام فيه مطمئناً إلى عناية الأطباء وعملهم ، أما نحن ياسيدى فلنا الله ، الأغنياء منا إن مرضوا ذهبوا مستشفين إلى مصر والهند والسودان وأرتريا ، وها أنذا بين يديك مثل من هذه الأمثال ، وأنت تعرف ماتكلفه الرحلة والنقلة من بلد ناء كبلدى إلى هذا البلد البعيد ، الذى أعيش فيه غريباً لا أحسن حتى لغة أهله ، وهنا ياسيدى

لديكم من أصناف المتاع الحلال مايعد حلماً من الأحلام فى بلادنا ، أتعرف أن بلادنا ليس فيها إلا طريق واحد مرصوف بين مكة وجدة فقط؟ أتعرف أنه ليس فى مكة كلها ولا فى جدة متنزه عام أو حديقـــة عامة واحدة يلجأ إليها النـاس فى الأضحيات والأمسيات بأطفالهم وأصدقائهم ليستروحوا فيها النسمات العذاب ، وتعرف أن الشوارع الرئيسية فى مدننا ماتزال تراباً تثير السيارات فيها الغبار يزكم الأنوف ويكتم الصدور ويهيء لأفتك الأمراض ، هناك ياسيدى حديقة جميلة فى مكة ولكنها بعيدة فى ضاحية من ضواحى البلدة لا يملك الذهاب إليها إلا أصحـاب السيارات وهم الأغنياء ، أتعرف أنه ليس فى مكة كلها وهى العاصمة شيء اسمه الترام أو الأتوبيس ، وحتى سيارات الأجرة ليست ميسرة فى كل حين وإذا وجدت فبأفدح الأثمان ، هنـاك شركة اسمها شركة السيارات لها امتياز النقل ولكنها لا تحفل بأمر الناس ولا براحتهم فهى تشحنهم فى سياراتها كما تشحن الطرود ، وتقوم السيارات فى الموعد الوحيـد الذى لايتنـاسب إلا مع إقلاق جميع الركاب وإزعاجهم ، والكهرباء ياسيدى هى الحلم العجيب أو العجيبة الثامنة من عجائب الدنيا فى بلادنا ، ليست فى بلادنا كلها إنارة عامة ، وإنما يستورد بعض الأغنياء مكائن صغيرة لإضاءة دورهم ويتكلفون لذلك مالايطيقه إلا الأقلون ، أما هذه الوسائل فهى ميسرة لديكم بأبخس الأثمان ، ستفتقد هذه الوسائل البسيطة لتراها هناك نعيم الدنيا إن وجدت ، وأنت إنما ترنو ببصرك إلى متاع أعظم وأكبر من هـذا المتـاع ، بل إنى لم أقل لك إنه ليست فى بلادنا

جامعة واحدة ولا مدرسة عليا ؛ فالأغنياء والقادرون مضطرون إلى ترحيل أبنائهم إلى مصر لطلب العلم مضحين بفراقهم فى سبيل ذلك! فماذا بالله تبغى من التفكير فى الهجرة إلى الحجاز ؟

قال عبد القهار : إن ماتقوله يستوقف النظر ويثير التفكير حقاً ولكن نظرتى إلى الحياة تختلف عن نظرتك أيها الفتى فانى أعرف من نفسى أن الحياة فى مجتمع زاخر بألوان الفتنة والترف كالحياة فى بلادنا ومجتمعنا ، تشعر الفقير من المـال مثلى بقسوة الحرمان ، وظلم المجتمع ، إن مظاهر الفتنة التى تستهويك فى بلادنا تلذع أمثالنا لذع النـار ، لأنهم لايقنعون بالرؤية والنظر البعيـد ، إننى أود لو أشارك فى كل ماأرى من ألوان الحيـاة ، أود ذلك بكل مايملكه قلبى من شباب متوثب ، وأمان مكبوتة ، وما أمثالى إلا كالجائع يرى المائدة الحافلة ويشم رائحة الطعام الجيد ، ولكنه لايحظى من هذه المائدة ولا بالفتات ! فالبعد عن هذه المناظر أروح للقلب وأهدأ للنفس ، لأنك مادمت قد بعدت عن الشىء فأنت بعيد عن الشعور بالحرمان منه ، أما البقاء والاكتفاء بالنظر وملامسة الحياة من وراء حجاب فهى فى نظرى كمن ينظر إلى المعارض «الفاترينات » ليمتع بصره بما وراءها من تحف فاذا ما امتدت يده تريد لمسها حال بينه وبينها زجاج بارد غليظ شفاف . أما فى بلادكم فهناك الحرمان العام والمساواة فى الظلم عدل . ثم إنى أطمع هناك أن أشق طريقى فانى لاأكتمك أن مثلى يستطيع أن يزاحم حتى كبار التجار عندكم لأنهم لا يعملون على أساس تجارى صحيح ، إنى أتقن الإنكليزية وهـذا

يساعدنى أن أعمل مترجماً وكاتباً للتجار وسأفيد من ذلك مايضمن لى حياة طيبة ؛ ثم إن هذا سيكشف لى عن حاجة البلاد إلى الأصناف التى تروج بها ، وسأكتب فى استيرادها وأبيعها بربح بسيط ، لأن تجاركم لايقنعون إلا بالربح العظيم ، وهم سيؤخذون من هذا الباب وحده وهذا يكسبنى ثقة ستنمو على الأيام ، أصبح بعدها تاجراً ناجحاً . فهلا تظن أن هذه الخطة ستفوز وستتخطى بصاحبها الحواجز فى بلد فقير كبلادكم ، ليست فيه ضرائب على الأجانب ، ولا حماية للوطنيين من هجرتهم ؟

قال الفتى : ربما صح ذلك ، بل هو أقرب إلى الصحة فعلا فليباركك الله . وصمت الفتى وطال صمته فأحس صاحبنا عبد القهار أنه قد آن له أن ينصرف ، فانصرف على موعد يجتمع فيه إلى الفتى ليتعلم العربية ، ويتعلم الفتى منه الإنكليزية ساعة فى كل يوم .

كان الفتى يفكر فى أن مايقوله عبد القهار هو الحق كله ؛ فالتجار فعلا فى بلاده لايقنعون بالربح البسيط وإنما يطمعون فى الربح الضخم العاجل ، وقد سأل أحد ذوى قرابته منهم فكان مما دافع به أن هذه البلاد بلاد استيراد واستهلاك ، وإن العيش فيها مرتفع ، ووسائل الحياة غالية ، وفى نفس الوقت فان الشراء فيها بنسبة السكان يعد قليلا ، والتجار — وأغلبهم يتكلفون لأعمالهم التجارية الكثير من التكاليف — مضطرون إلى طلب الربح الكثير بالنسبة لتكاليفهم ولغلاء الحياة ، ولقلة الاستهلاك ، تذكر الفتى هذا وفكر فى أن صاحبنا عبد القهار سيفوز حتما إن جاء إلى الحجاز

وفى رأسه خطة العمل : فهو أولا رجل فرد يستطيع أن يعيش فى كوخ وأن يلبس ثوباً واحداً وأن يأكل أى طعام شاء فيستطيع أن يزاحم التجار ويتغلب عليهم ، وفكر فى أن مثل هذا النجاح سيغرى الكثيرين من أمثال عبد القهار بهذه المزاحمة الخطرة وبهذه الوسائل ستصبح اقتصاديات البلاد وتجارتها العليا فى يد أمثال عبد القهار صاحب من الأجانب الذين لايفكرون فى خير البلاد ولا فى وسائل تقدمها ، وهنا ذكر أنه قرأ كثيراً عن الضرائب التى تفرضها الحكومات على الأجانب المقيمين فى بلادها ، والقيود التى تضعها فى سبيل الوافدين إليها حماية للوطنيين من زحفهم ومزاحمتهم وذكر فى نفس الوقت أن بلاده ليس فيها أمثال هذه القوانين ، وهى باعتبارها دار هجرة للمسلمين جميعاً تفتح ذراعيها لاستقبالهم والترحيب بهم ، ومساواتهم بالمواطنين فى كل شىء ، وانها بهذا تيسر لهم الهجرة إلى هذه البلاد والإقامة فيها ، والثراء من العمل بها ، ومزاحمة الوطنيين ، وذكر فى نفس الوقت أن أغلب المهاجرين هم من الفقراء الذين لايجدون سبيلا للرزق فى بلادهم فهم يفدون إلى هذه البلاد ليزاحموا أهلها على أرزاقهم وليقاسموهم الصدقات التى ترسلها إليهم الأمم الإسلامية والمحسنين من المسلمين ، وأن كثيراً من هؤلاء فعلا قد نجحوا نجاحاً أشعر المواطنين بزحمتهم والضيق بنشاطهم ، وتمنى أن تسن الحكومة من القوانين مايكفل لرعاياها حمايتهم من هذا الزحف الاقتصادى المستفحل ، وتمنى أكثر أن تفعل ما كان يفعله الفاروق رحمة الله ورضوانه عليه عقب كل حج ، إذ ينادى

فى مكة — ياأهل الشام شامكم ، ويا أهل اليمن يمنكم — فينصرف كل حاج إلى وطنه منجداً أو متهماً ، ولكن أنى يكون هذا والحكومة لاتستطيع التفكير فى هذا الأمر لأنها تعتبر هذه البلاد دار هجرة للمسلمين عامة من كل حدب وصوب ، لهذا فهى تخشى أن تحد الهجرة أو تضع القوانين لتنظيمها .

— ١٠ —

استيقظ الفتى على صوت رقيق يناديه فى أدب وتهيب :

عرب صاحب ، عرب صاحب :

فاذا فتاة كأنما خلقت الفتنة على صورتها ، وكانت ممرضة بالمستشفى ولكنه لم يرها قبل اليوم ، وكانت قد حضرت لتهيئة الغرفة فوجدته نائماً ، أو مغفياً فى وقت لم يكن هو وقت المنام ، وكان صديقه الحجازى قد حضر من بومباى لتفقد أحواله ، والاطمئنان على صحته ، فسأل عنه فقيل إنه نائم فبعث إليه من يوقظه ، ووجد هذه الفتاة فى طريقه فأرسلها إليه .

قالت الفتاة فى انكليزية رقيقة : إن سيداً عربياً ينتظرك فى حجرة المدير . فعرف الفتى أن رفيقه الحجازى هو الزائر ، فشكر لها إيقاظه ، وأخبرها إنه سيذهب من فوره إليه ، وأصلح الفتى من شأنه ليذهب لاستقبال صاحبه ، ولكن رؤية هذه الفتاة المليحة التى لم يرها قبل اليوم إستخفته وأطربته وأيقظت فى نفسه من عوامل البهجة والمرح ماأنساه كل شىء إلا هذا الوجه الصبوح الرقيق .

ذهب الفتى لاستقبال صاحبه فى حجرة المدير وقضيا أغلب اليوم معاً فقد سمح له الطبيب إذ رأى بوادر التحسن عليه أن يقضى خارج المستشفى كل يوم ساعة أو بعض ساعة ليرفه عن نفسه ما يجد من ضيق بالبقاء الدائم هناك ، واطمأن صاحبنا إلى صحة أسامة وإلى رضاء مدير المستشفى وأطبائه عن حالته ، فتركه مودعاً فى آخر اليوم ليقضى ليلته فى نزل قريب ليسافر فى البكرة عائداً إلى بومباى .

عاد الفتى إلى غرفته فى المستشفى آملا أن يمتع طرفه برؤية الممرضة الجميلة التى لا يعرف اسمها حتى الآن ولكن محاولته للبحث عنها أو رؤيتها لم تأت بفائدة ، فهو لا يعرف اسمها ليسأل عنها إن أراد السؤال .

وقضى الليل يحلم بها وبما يكون من أمره معها ، وكان فتى غزلا كما قدمنا ، وكانت هذه أول فتاة تستحوذ على تفكيره وتصبح له شاغلا لذيذاً منذ أن وطأت قدمه هذه البلاد ، وقضى ليلته فى أحلام لذيذة متقطعة وصحا مبكراً فخرج إلى الحديقة يجوس خلالها ، والنسيم رطب ندى كأنما هو يقبل الزهر ، والأزهار متفتحة تنفح العطر ، ومماشى الحديقة تكاد أن تكون خالية من النزلاء ، وسار على غير هدى ، متفتح النفس للحياة ، والشوق ، والحب ... وقضى وقتاً طويلا يجوس خلال الحديقة وساقته قدماه إلى مواضع لم يجس خلالها من قبل ، وإذا به وجهاً لوجه أمام فاتنة الأمس وقد جلست تحت تمثال كبير لبوذا أمام نافورة مياه جميلة ، ولم تكن

فى ثياب الممرضات فى هذا الصباح وإنما كانت فى ملابسها الوطنية ، وبدا شعرها الأثيل طويلا جعداً يقرب إلى ركبتيها ـ وكان منثوراً خلف ظهرها ، كأنما يدنو ليقبل قدميها ، أو ليحوطها بهالة من هذا السحر الأسود الرقيق تبعد عنها العيون الشرهة ، والرغبات الشريرة ، والعشاق المدلهين ، وكانت تقرأ فى كتاب قدر أنه الإنجيل وترتل ما تقرأ فى صوت رقيق كأنه همس الطيور ، أو خرير الجداول أو وسوسة النسيم فى الغصون ، بل كأنه مزامير داود .. فيما سمع عنها من قديم .

وقف الفتى مبهوتاً لايريم ... ولم تكن الفتاة قد أحست بمقدمه فقد كانت مستغرقة فيما تقرأ ، وحلا له أن يختفى خلف شجرة من أشجار النارجيل القريبة ليستمتع بهذه الفتنة ما وسعه الاستمتاع ، وليقضى فى صحبة الفتاة ولو من بعيد أقصى ما يمكن من الوقت وتراجع إلى الوراء وفى تراجعه عثرت قدمه بغصن رطب فأحدثت هذه العثرة حركة أفزعت طائراً كان فوق الشجرة فتنبهت الفتاة والتفتت فاذا صاحبنا يحاول القيام من عثرته ، وقد لطخت الأرض المبتلة ثوبه ويديه فكان منظره داعياً للضحك والرثاء ، فابتسمت الفتاة فى حياء ، ونهضت تمسح ما علق بثوبه من التراب الندى فاغتنم صاحبنا هذه الفرصة وحاول أن يطوقها بذراعيه فأفلتت منه غاضبة جازعة ، ووقفت على بعد منه ، ونظرت إليه نظرة فيها من الزراية والاحتقار والتأنيب ، ما لم يخطر لباله أن يتعرض له قبل اليوم ، وقالت ــ بعد فترة خالها دهراً ــ : لقد كنت أظنك مؤدباً ، أهكذا أنتم العرب ، ما أحقرك ! !

ولم يحر الفتى جواباً ، فقد أدار لسانه فلم يتحرك ووقف منكساً ذليلا ، مصفر اللون مرتجف الأطراف من الخجل والحياء ، واستدارت الفتاة فى عظمة وإباء فأخذت كتابها وضمت إزارها وأصلحت ما تناثر من شعرها وانصرفت فى هدوء ، دون أن تلقى عليه نظرة ، أو تلقى إليه كلمة واحدة ولو كانت كلمة تحقير . . .

ووقف صاحبنا وكأنه لوح من الثلج ، أو تمثال من الخزى والخجل فى هذه الحديقة الكثيرة التماثيل نسى المثال أن يبنى له قاعدة ينصب عليها ، وبعد مدى تحرك وسار عائداً إلى غرفته ، وهو يقطر خزياً وخجلا ، وأخذ يؤنب نفسه ويلومها ، كيف قابل أدبها بهذا الخزى الفاضح ، وكيف قابل إسراعها لنجدته بهذا التبجح الوقح ؟! وفكر فى وسيلة يصلح بها خطأه أو يعتذر بها عما فرط فلم يجد لذلك وسيلة ، وهاله ما وقع منه ، وكبر فى وهمه انها غلطة منه ، لا سبيل إلى إصلاحها ، وأعجزه أن يجد من يبوح له بسره ، ويفضى إليه بدخيلة نفسه ، وما لبث أن طرح هذه الفكرة جانباً ، فان من العيب أن يفضى إلى إنسان فى هذا البلد بهذا السر المخزى الرهيب ، وخطر له انها ربما ذهبت إلى مدير المستشفى فشكت إليه ما وقع منه ، وقدر أن هذا ربما كانت نتيجته الطرد من هذا المستشفى ولم يكن يهمه أن يطرد ، ولكن كان يهمه أن لا يصل خبر هذا الأمر إلى كراتشى وإلى القائمين بأمره هناك فان الموت خير له من هذا الخزى والعار ، وفكر أن يكتب إليها كلمة اعتذار ويوصلها إليها مهما كلفه الأمر فلعل فى هذا ما يصلح الأمر ولو قليلا ، ووصل

إلى غرفته وكتب إليها بعـــد تفكير هذه الكلمات :

« لست أطمع فى عفوك ، لقد أخطأت خطأ فاضحاً ، أعتذر بحرارة » وبقى الفتى وقتـاً طويلا وهو مرتبك ، ولم يعرف وسـيلة يوصل هذه الورقة إليها فلم يكن يجرؤ على مقابلتها بعـد ، ولكنه عزم أن يسلمها هى — ودون واسطة مهما كلفه الأمر .

لم يذق الفتى فى ذلك اليوم الطعام إلا لماماً ، ولم يرتح إلى ما كان يرتاح إليه من أسباب السلوى والمتاع ، وأخيراً تذكر أن إدارة المستشفى قد سمحت له بمغادرته للفسحة ساعة أو بعض ساعة ، فارتدى ملابسه على عجل ، وانطلق إلى المدينة لا يلوى على شىء ، وقضى فى المدينة ساعة أو أكثر يجوس خلالها بفكر شارد ، وقلبه جازع ، وعين لاتبصر شيئاً إلا هذا الندم الفظيع الذى جره عليـه جرأته على فتاة لا يعرف من أمرها شيئاً .

وعاد إلى غرفته بالمستشفى وحاول أن يقرأ فلم يستطع ، فقد كان حادث الصباح يتراءى له خلال السطور ، وكانت كلمات التحقير والزراية التى سمعها منها ترن فى أذنيه كأنها الرعد ، ونظرة الاحتقار والتأنيب تتمثل له كأنها شواظ من النار يلهب جسمه ورأسه المحموم . وطلب النوم فاستعصى عليه ، وأخذ الندم يفرى قلبه فرياً وبعـد وقت طويل أغفى إغفاءة قصيرة صحا بعدها وقد صفى ذهنه ، وعاودته طبيعته العملية وقال لنفسه بعد تفكير :

« لقد وقع ما وقع ، ولقد كانت غلطة كبرى ما فى هذا شك ، »
« ولكن سبيل الإصلاح متعذر، كما أن هذا العذاب لا فائدة منه »

« فلأحاول أن أعتذر ، وإن كان لا أمل فى استعادة قلبها » .

ووقف ذهنه عند هذه الجملة الأخيرة — استعادة قلبها — أوكان قلبها لى حتى أستعيده ؟ وقال لنفسه وهو يضحك ، ان المسألة لم تكن أكثر من إعجاب حاولت أن أعبر عنه بطريقتى الخاصة فأخفقت فما داعى كل هذا العناء ؟ وما لى ولقلبها ؟ وهل كنت يوماً ممن يدخلون أمر القلوب فى حسابهم ؟ سأقابلها غداً وأطرح لها الورقة فان قبلت العذر فبها ، وإلا فلنهمل هذا الأمر ولنطرحه من حسابنا إلى الأبد .

وراقته هذه الفكرة ، وعاودته طبيعته العابثة اللاهية فقال لنفسه : ألا ما كان أحلاها وهى فى ملابسها الهندية الواسعة وشعرها الأثيث يداعب قدميها الرخصتين ، ونسيم الصبح يداعب وجهها الرقيق ويغازل شعرها وثوبها ، وقال لنفسه انه كان معذوراً فمن ذا الذى يرى هذه الفتنة ويتجاهلها ، انه لم يفعل إلا ما توحى به الطبيعة ، الطبيعة الحية المتوثبة ، ولم تكن محاولته لتطويقها ، إلا تسبيحاً لهذا الحسن ، وتعبيراً عن إعجابه بهذه الفتنة التى صورت بشراً سوياً .

ونام وهو يفكر فى هذا فرأى فيما يراه النائم أنها حضرت إليه فى غرفته بالمستشفى فأعرض عنها متظاهراً بالغضب فأخذت تداعب شعره وعينيه وهى تهدهده بكلمات الدعابة والعطف ، وأفاق فرحاً فاذا منديل السرير هو الذى كان يداعب شعره وعينيه إذ وقع على رأسه وهو نائم فصور له هذا الحلم الجميل .

انطلق الفتى إلى مكان الأمس بالحديقة وهو مملوء أملا فى أن يجدها ويعتذر إليها وينهى هذا الأمر المعلق فوق رأسه كالسيف المصلت ، وخطر فى باله أنه ربما لن يجدها فلعل فعلة الأمس أجلتها عن مكانها المختار ، وبعدت بها عن أن تتعرض لما تعرضت له من قبل ، ولكنه سار غير آبه فلم يجدها فعلا فعاد كاسفاً ، وفى أثناء عودته مر بالطريق المؤدى إلى البناء الخارجى فاذا بها قادمة إلى المستشفى ومعها امرأة عجوز أوصلتها إلى الباب وعادت من حيث أتت فتنظر بها واجف القلب حتى حاذته فقدم إليها الورقة ولكنها لم تلتفت إليه فسقطت الورقة منه فسحقتها بقدميها ولم تنظر إليه ، ورأى خادماً من خدم المستشفى قادماً نحوهما فانطلق فى الطريق المعاكس ولم يلتفت إليها ، وعاد بعد برهة فلم يجدها ، وبحث عن الورقة كذلك فلم يجدها أيضاً ، وخطر له انها ربما تركتها فمن المؤكد أنها رأتها ولكنه رجح أنها لم تتنازل حتى بتمزيقها ، وعاد يائساً كئيباً .

لم يعد بوسع أسامة أن يفعل شيئاً ، وقرر فيما بينه وبين نفسه أن لايكلمها بعد اليوم وأن لايتعرض إليها ، وأن يبتعد ما استطاع عن طريقها حتى لا يراها ، فان احتقارها له قد أثار نفسه ، وإن كان لم يخلها — نفسه — من الذنب ، ولكنه قال وهو يحدث نفسه : هبنى أخطأت ، وهأنذا قد اعتذرت فما الداعى لكل هذا التحقير وما الموجب لكل هذه الإساءة المتكررة ؟ أما والله انها لفتاة صلفة متعجرفة ، سأهملها ولن أقابلها بعد اليوم ، كأنما كان أمر إهمالها

ومقابلتها بيديه ، ونسى صاحبنا أنه إنما لقى جزاء ما قدمت يداه من حمق وتبجح ومجون .

حاول الفتى جاداً بعد هذا الحادث أن ينسى هذا الأمر فعزم أمره على أن يتجنبها ما استطاع وأن لايقابلها جهده ؛ وأن لايذهب إلى حيث رآها بالحديقة واتفق مع عبد القهار على أن يقضيا الضحوة فى مدارسة الإنكليزية والعربية ، وأن يخرجا للفسحة فى المدينة بعد العصر ، وأن يتفرغ فى الليل ساعة أو بعض ساعة لمراجعة ما درسه من الإنكليزية وإعداد درس الغد، وسار على هذه الطريقة أياماً وأياماً وهو يقسر نفسه على نسيان الفتاة وما كان من أمره معها ، وظن أنه بهذا قد نفض يده من هذه الحادثة العابرة نفضاً تاماً .

كانت مدارسة الفتى العربى وزميله الهندى شاقة ومضحكة فى آن معاً ، فلم يكن الفتى يعرف الإنكليزية معرفة تساعده على تفهيم صاحبه الهندى ما يريد إفهامه هو من معانى الكلمات العربية التى تعرض لهما خلال الدرس ، كما كان صاحبنا الهندى لا يعرف من العربية إلا كلمات قليلة لا تساعده على إفهام صاحبه معانى الكلمات والجمل الإنكليزية التى تعرض لهما فى الدرس ،وكانت معرفة الفتى بالأوردية كمعرفة صاحبه الهندى بالعربية لا تتعدى كلمات الضرورة والمجاملة والسير فى الطريق ، فكان كلاهما يشرح لصاحبه الكلمة باللغات الثلاث ان استطاع أو بلغتين وكانا يستعينان بالقواميس التى لديهما ، وبالإشارات أخيراً ، وكان هذا مجهود شاقاً ، فليست كل الكلمات التى تعرض لأحدهما والتى يعرفها فى

اللغة التى يحذقها بمستطيع نقلها إلى صاحبه من القاموس أو إفهامه إياها بالإشارة ، ولكن يمكن القول إن ذخيرة الفتى العربى من الإنكليزية كانت أكثر من ذخيرة صاحبه الهندى من العربية ، ولهذا كان هو أجدى على صاحبه وأنفع له ، كما أن النية الصادقة من الفتى فى الإفادة من الدرس والانهماك فيه ، والانشغال عن نفسه به ، وسيره خلال المدينة وتعرضه لمحادثة من يلقاه بها قد ساعده كثيراً على السير فى الدرس خطوات واسعات ، وكانا إذا أعياهما معنى كلمة من الكلمات خرجا معاً فى الأصيل فذهبا إلى البلدة ليدل أحدهما صاحبه على معنى اللفظ المطلوب بما يعرض لهما من مناظر وصور وأمتعة وأناسى ، ولم يكن هذا بالطبع إلا فيما يختص بالأشياء المادية فقط ، أما الأشياء المعنوية فلم يكن تحديدها سهلا ولا ميسراً ولم تكن الرؤية مما يوصلهما إليه .

— ١٢ —

أتراه يحبها ؟ هذا هو السؤال الذى كان يدور بخلد أسامة كلما تذكر فتاته « كيتى » وكان هـذا هو الإسم الذى تدعى به فيما سمعه عرضاً ذات يوم وحاول أن لا يلقى إليه بالا .

نعم كان يسأل نفسه هـذا السؤال : — أترانى أحبها ؟ وكانت ذكراها ماثلة أمام عينيه ، وكانت صورتها لا تبرح خياله ، وإن كان قـد حاول جاهداً أن يقصى هذه الصورة عن عينيه ، وأن يمنع الذكرى أن ترتسم فى خياله وإن كان قد حرم على نفسه السير خلال

الحديقة فى الصباح والمساء ، ولكنه كان يراها فى مماشى المستشفى وحجراته فيتفادى رؤيتها إن كان إلى ذلك سبيل فينثنى عائداً ان كانت هى مقبلة ، أو ينطلق فى الطريق المعاكس لوجهته إن كانت هى فى سبيله إليها ، ولم تكن هى أقل منه تفادياً للقاء ، وربما التقى بها أحياناً وجهاً لوجه ولم يستطع أن يتفادى لقاءها مهما كلفه الأمر فكان يغض من بصره أو يتشاغل عن النظر إليها بالحديث مع من يكون معه ، وكان هذا يفرى قلبه فرياً ويصبغ وجهه بحمرة قانية نتيجة مايتكلفه القلب والعصب من جهد . وكان فى أقصى ضميره يتطلب رؤيتها ويتمناها فإذا ما لقيها عرضاً تفادى هذه الرؤية جاهداً وفى قلبه من الأسى والحزن ما يطير بنفسه شعاعاً ويذهب بها بدداً .

وكأنما لاحظت الفتاة تأدبه معها وتفاديه لقاءها فخففت من غلوائها ولم تعد تظهر له من الزراية ما كانت تظهره قبلا كلما لقيته ، ولكنها كانت تتحاشى النظر إليه ان التقت به ، وكانت معارف وجهها لا تنم إن التقيا على أنها تعرفه أو أن لها معه شأناً .

وكان الفتى قد شغله أمرها فلم يكن يفكر إلا فيها ، ولم يكن ينظر بعين خياله إلا إلى صورتها الحلوة المحببة ، وكانت تتعاقب صورها على خياله كما تتعاقب الصور فى شريط سينمائى فتبدو له أول ما تبدو وهو يستيقظ على صوتها الرقيق تناديه : — عرب صاحب وهى فى ملابس الممرضات البيضاء كأنها ملاك هبط من السماء

بأجنحة من النور والصفاء، ثم يراها وهى ترتل الإنجيل أمام النافورة الجميلة وتحت تمثال بوذا ، وشعرها الأسود منثور خلف ظهرها وعلى جوانب أصداغها والنسيم يداعبه ويلاعبه، ثم يراها وقد نهضت لتنفض عنه التراب ولتساعده على القيام من عثرته ، ثم يرى فى لمح الطرف ما كان منه ومنها ومن نظرة الزراية والاحتقار والغضب الشديد فينسيه هذا المنظر الأخير هناءاته السابقة بالمناظر الجميلة الأولى المحببة ، وكان لا يسأم تكرار هذه المناظر واستعراضها فى خياله كلما خلا إلى نفسه، كما أن كلماتها كانت ترن فى أذنيه كلما وصل فى تذكره واستعراضه إلى هذا الفصل الأخير ، ويمر بعد هذا مستعرضاً ما كان منها فى اليوم التالى ، والمرات القليلة التى يراها فيها فيتفادى رؤيتها أو يلقاها فلا يستطيع أن ينظر إليها . وكان لا يذوق النوم إلا غراراً فى بعض الليالى، فقد كانت الصورة تتعاقب والذكرى حية ماثلة وربما نام فى أول الليل ولكنه ما يلبث أن يستيقظ فى جوف الليل ليستعرض أمره معها ، وذات ليلة أخذ فى مثل ذلك وقد ثقل عليه الأمر وكان مستلقياً على سريره فانتفض قائماً وجلس على السرير وأخذ يسأل نفسه هذا السؤال

أترانى أحبها ؟ وأخذ يحلل أمره معها تحليلا دقيقاً لا يتجاهل فيه شيئاً ولا يغفل عن شىء ، لقد كانت فتاة جميلة ما فى ذلك شك، بل هى ساحرة أكثر مما هى جميلة ، ولكنها ليست أولى الجميلات اللواتى رآهن ، ولا أخراهن ، فقد أتيح له فى انطلاقه فى المدينة فى هذه الأمسيات أن يرى فتيات كثيرات هن بالتأكيد أكثر أناقة

وصقلا ، وقد وجد السبيل ممهداً أمامه لمعرفتهن ، ومحادثتهن وربما إلى أكثر من هذا ولكنه لم يجد من نفسه ميلا إلى أن تتعدى العلاقة بهن فوق الحديث والنظر ؛ فقد كانت هى دائماً تظهر أمامه ليقارن بينها وبينهن ، بين جمالها الطبيعى الذى لا تزينه إلا الطبيعة الصادقة البسيطة وبين جمالهن الذى يلعب الحلاق وتلعب الأصبغة والأدهنة فيه دوراً كبيراً ، بين أدبها وتحفظها ، وجرأتهن ومجونهن ، بين ملابسها الوطنية البسيطة الرخيصة ، وملابسهن الحريرية الغالية الأنيقة ، فكانت هذه المقارنة ، بل وجود صورتها ، يمحو كل الصور الأخرى كما يمحو نور الفجر ظلمات الليل البهيم .

سأل نفسه هذا السؤال وكرره على نفسه وخرج من هذه المحاولة بالاعتراف بحبه لها ، وحنينه إليها ، وقال لنفسه فيما قال إنه لا فائدة من هذه المغالطة ، وإن المسألة لم تعد مسألة حادث عرضى فهو يشعر أنه قد ربط إليها ، وأنها نزلت من نفسه منزلا لم ينزله أحد من قبل ، ولا يمكن أن ينزله أحد من بعد ، وأن حادثه معها كان فظيعاً ، وأنها فتاة على نمط خاص غير هذا النمط الذى أتيح له أن يعرفه حتى الآن من الفتيات الماجنات ، وقال لنفسه إنه ربما لو عرفهن قبل أن يعرفها لما كان لها فى نفسه شأن ، بل ربما لو اقتصرت معرفته إياها ولم يحدث منه ما حدث لما تطورت هذه الحادثة إلى هذا الحب الجارف المشوب بالندم ، والذى لا أمل فيه .
وكان تحليل عاطفته أنها أحسنت إليه فقابل إحسانها بالإساءة ،

وأدبها بالتبجح فكانت هذه الغلطة تزيد النار فى قلبه ضراماً ، والأسف فى نفسه هياماً وكان يتحرق لإصلاح ما وقع منه موهماً نفسه أنه لن يطمع إلا فى رضائها ، ولكن هذا كان مستحيلا فيما يبدو له إلا أن تقع حادثة ... وأخذ يستعرض فى ذاكرته ما قرأ من روايات غرامية ، وكيف كانت الحوادث دائما هى التى تمهد للحب أو تخلقه فى مثل رد الطرف بين البطل والبطلة ؛ تتعرض البطلة لحادث يكاد أن يودى بحياتها فيتقدم البطل وينقذها فتشعر أنها مدينة له بحياتها وهنا يكون الحب ! وتمنى أن تقع حادثة يتقدم فيها كبطل ، ولكنه رأى أن حبه أعظم من هذا فهو يضن بها حتى على التعرض لخطرات النسيم أو لوخز شوكة فى شجرة ورد ، فكيف يريد أن تتعرض للأخطار كما يقرأ فى الروايات ، ورأى أن أغلب الحوادث فى هذه الروايات مفتعلة متكلفة ، فليس كل حبيبة يتعرض لها أسد كاسر ، أو فيل ثائر ، أو فرس جموح ، أو تحاول الانتحار فترمى بنفسها فى الماء ، أو تتعرض للقطار فترمى بنفسها على القضبان ، وليس كل حبيب يخرج فى هذه اللحظة المناسبة ليقوم بهذه البطولة السينمائية فإن الأمور بين الناس تسير فى الأغلب الأعم سيراً طبيعياً ، لا تعترضه هذه الحوادث إلا لماماً ، وفى الفينة بعد الفينة . ولماذا لا يكون الأمر أقرب إلى الطبيعى منه إلى هذا التكلف غير المستساغ ؛ لماذا لا يكون الحب دائماً تجاذب قلبين ، وتجاوب روحين ، وشوق نفسين ومتعة عينين ؟ ؟ كل ما فى هذه الحياة

– وفى هذا الزمن خاصة – يمهد السبيل إلى هذا بين شابة جميلة وشاب قوىّ فى سن الشباب والحب .

ولكن ما فائدة هذه الفلسفة وكيف السبيل إليها ؟ وإذا كان لابد من حادثة – كما يريد الروائيون أن تكون بل كما يريد ظرفه الخاص أن تكون – فانتقع هذه الحادثة له هو بالذات ، فانه هو الأجدر بالتعرض للأخطار جزاءاً وفاقاً على ما بدر منه فى حق هذه الفتاة التى لا تستحق إلا التبجيل والحب والإجلال . وخطر له أنه ربما لولم يقع منه ما وقع لسارت الأمور سيرها الطبيعى ، ولأفضت بهما إلى الحب ولبادلته إياه ، أولم تجد فى قبوله صديقاً على الأقل من بأس ، فما أحوجه الآن إلى صداقتها وإلى عطفها وإلى أن يستظل بظلها ، وينعم بهذا الوجه الصبوح ، وبهذه الروح الرقيقة الهادئة الساحرة .

أما الآن وقد وقع ما وقع فلا سبيل إليها ، ولا سبيل إلى إصلاح ما أفسده بحمقه ومجونه ، وليس من المنتظر بالتأكيد أن تقع له أو لها حوادث روائية يقوم فيها هو بدور البطل المنقذ أو تقوم هى فيها بدور الملاك الحارس . فليبعد هذا العبث عن ذهنه ، وليترقب ما يأتى به الزمن فهو وحده الكفيل بإصلاح ما جنت يداه .

ولكن أتراه يستطيع صبراً وهى هى دائماً بين عينيه ؟ فى يقظته ومنامه ، فى مسائه أو صباحه ، فى درسه وقراءته ، فى حديثه وصمته ، فى كل ومضة عين ، ولمحة ذهن ، وخفقة قلب ، وحديث

نفس . لقد أصبحت دنياه التي لا مفر منها ، وأصبحت له شاغلا مايبرح ذهنه وخياله، وقال لنفسه إن القرب يزيد اللوعة ويكون أدعى للافتتان، ولإثارة النار وزيادتها اشتعالا ، ولإضرام الفؤاد، وخصوصاً وأن هذا القرب يصاحبه الحرمان ، ويصاحبه فقدان الأمل ، فلماذا لا يطلب البعد فلعل فيه عزاءاً ، ولعل فيه سلوى ، ولعله يشغله عن التفكير فيها ، وودّ لو أمكنه أن يغادر هذا المستشفى إلى نزل آخر. بل ودّ لو استطاع البعد عن هذه المدينة نهائياً إلى أجل يختبر فيه نفسه ويمتحن به قلبه ، فلعله منصرف عنها إلى سواها . وقد قرأ فيما قرأه عن هذا الحب — الذى لم يعرفه من قبل ، والذى كان يظنه خيالا فى خيال ووهماً مصوراً لا وجود له فى الحياة — قرأ أنه لا يقضى على الحب إلا الحب، وأنه كالخمر لا يداوى إلا به . وقال لنفسه إنها ما دامت أمامه يراها ويهيم بها فلا سبيل إلى أن يحب غيرها فإنها تبرز إلى جانب كل صورة وتظهر عليها وتنسيه كل شيء إلا نفسها ، فليتطلب البعد وليداو الحب بالحب فإنه لا فائدة من هذا العذاب الذى يراه كالحلقة المفرغة لا يبدأ إلا ليتجدد ، ولا يذهب إلا ليعود أقوى ما يكون عذاباً ، وأشد ما يكون ضراماً .

وعوّل على أن يذهب فى الصباح لمقابلة المدير واستئذانه فى ترك المستشفى والسكن خارجه، وكان قد وعده بذلك من قبل، أو على الأقل السماح له بالذهاب إلى القرية المجاورة لأسبوع واحد إن كان لا يرى أنه قد آن له أن يغادر المستشفى إلى نزل آخر.

هكذا فكر الفتى وقدّر ؛ ولكن ما وقع فى اليوم التالى كان شيئاً لم يخطر ببال الفتى ، ولم يدخل له فى تفكير أوتقدير . وهكذا تأبى الحوادث أن تسيره كما يشاء ، ولكن وفق ما تشاء ، فلننتظر ساعة أوساعات حتى نستقبل الصبح ونستقبل معه ما يطرأ من جديد .

- ١٣ -

استيقظ الفتى وكان قد تأخر فى نومه بعد سهر الليلة البارحة على صوت حركة رقيقة فى الغرفة ، وإذا فتاته التى لا ينكرها فى ملابسها البيضاء تناديه : — عرب صاحب — وفتح عينيه وفركهما جيداً ليرى إن كان الأمر حقيقة أو حلماً ولكنها كانت فتاته حقاً وأفضت إليه فى أدب وحزم معاً أن المدير يدعوه لمقابلته حالا . وانثنت خارجة من حيث أتت ولم يستطع صاحبنا إلا أن يفتح فاه كالأبله وأن يودعها بنظرات شاردة ، وأفكار مضطربة ، ولم يفكر فى المدير لماذا يريده ، وإنما فكر فى المعجزة ؛ معجزة دخولها إلى غرفته وإيقاظه من منامه ومناداته مرة أخرى ، والكلام معه ولو لأداء رسالة قصيرة أوتبليغ أمر صارم . ونسى أنها ليست إلا ممرضة فى هذا المستشفى لا تملك مخالفة أمر تؤمر به ، أوإهمال طلب يطلب منها ، ولكن أهى فى نظره ممرضة فقط ، إنه ينظر إليها وكأنها ملكة عظيمة جليلة لها كل هيبة الملكات وقوتهن وجلالهن ، وينظر إلى نفسه بالنسبة إليها وكأنه عبد ذليل فيه ذل كل عبد وخضوعه ، وبعد لأى أفاق لنفسه لماذا لم أغنم الفرصة فأعتذر لها وأتوسل إليها أن تعفو

وتصفح ، وأبنها لواعجى وما أعانى ، حقاً إنى غبى بليد ! وأخذ ينحى على نفســه باللائمة ، ويلهبها سياطاً على إضاعة الفرصة التى لن تسنح مرة أخرى ، وأخيراً فكر لماذا يا ترى يريده المدير لعلهـا شكت أمرها إليه ؟ ولكن الأمر مضى عليه زمن طويل ، إذاً فلماذا يريده ، وأخيراً رأى بما فى طبيعته من حب للبت أن يذهب للمدير ثم يتفرغ بعــدها للتفكير فيما يتطلبه الموقف من جميع أطرافه ، وجمع أطراف شجاعته ، وانطلق إلى غرفة المدير وإذا به يجـد نفسه فيها وجهاً لوجه أمام صاحبه الحجازى الذى أوصله إلى هذه القرية والذى عرفه إلى مدير المستشفى وأسلمه إليه، وتعانقا وسر الفتى برؤية صاحبه كما سر صاحبه برؤيته . وقال لقد بشرنى حضرة المدير بشفائك وقد رغبت أن أراك حال قدومى وكنت فى طريقى إلى غرفتك فوجدت الممرضة التى أرسلتها إليك فعهدت إليها بإيقاظك وحضرت إلى هنا فى انتظارك ، وقد سرنى أن أراك بخير وأن أراك تنام حتى يضحى النهار ولكن مع هذا أرى أنك مازلت ساهماً نحيلا وفى حاجة إلى كثير من الراحة والعناية ؟

كان رفيق الفتى يقول هذا كله دون أن يترك لصاحبنا فرصة للإجابة . ولكن الفتى كان سعيداً حقاً بأن يعرف أن المدير لا يريده وإنما الذى يريده هو هذا الرفيق الطيب الذى يرحل هذه الرحلة الطويلة ليراه ويتفقد أمره ، ويطمئن إلى صحته وتقدم شفائه ، وكان سعيداً حقاً بأن أتاح له مرة أخرى دخول صاحبته إلى غرفته وإيقاظه من منامه وسماعه صوتها بعد أن بعد العهد به عن كل هذا منها .

وكان المدير يصغى إلى الفتى ورفيقه ولكنه لم يكن يفهم عنهما شيئاً فقد كانا يتحدثان بالعربية التى لا يعرف منها كلمة إلا ما يتندر به مع الفتى كلما لقيه من ألفاظ التحية التى حفظها عن الهنود من المسلمين قبل العرب. والتفت المدير إلى الفتى وقال له : إنه يسرنى أن أخبرك أنك ستتمتع مع صديقك هذا باجازة أسبوعين خارج المستشفى بل خارج المدينة إن أردتما ، وإنى لأرى أن تغيير الهواء وتجديد المناظر قد يسرك ويفيدك وأظنك بهذا تحقق رغبة طالما أفضيت إلىّ بها ، وطالما أجلتها لك ، ولكنى أسمح لك بها الآن كتجربة بصحبة صديقك هذا فإن أسفرت التجربة هذه عن النجاح الذى أتوقعه فقد نسمح لك نهائياً بترك المستشفى والنزول خارجه وإلا أرغمناك على قضاء مدة أخرى فى ضيافتنا التى بدأت تضيق بها كما أظن. وابتسم الفتى وتلعثم فى الإجابة فهو لا يريد الآن وفى هذه الظروف بالذات ترك المستشفى وقد قربت آماله أن تدنو ولكن رفيقه لم يدع له فرصة للكلام أو التفكير فقد قال له معقباً على كلام المدير : لقد كنت قادماً لزيارتك وقضاء أسبوعين للراحة والاستجمام فأشار علىّ حضرة المدير أن أصحبك فى هذه الأجازة وقد سرنى كثيراً أن يسمح لك بقضاء هذه الإجازة معى فلتعدّ مايلزم لهذه الرحلة على عجل فانا سنقضى النهار فى نزل فى المدينة ثم نبرحها قبل الغروب إلى القرية المجاورة وما تلاها من القرى فى هذا الريف الجميل.

كان الفتى يهيئ فى حقيبته ما يحتاج إليه لهذه الرحلة من ملابس وكتب وأمتعة ضرورية وكان منصرفاً بكليته إلى هذه العملية بصورة آلية بينما كان تفكيره منصرفاً إلى شيء آخر بعيد كل البعد عن الأمتعة والملابس والكتب ، بل كان قريباً كل القرب إلى ذلك ، فهذه الأشياء تذكره بالرحلة التى تنتظره الآن ، والتى فوجئ بها مفاجأة أقرب ما تكون إلى العنف ، والتى كان يمكن أن يكون بها مسروراً لولا حادث الصباح المعجز فى نظره ؛ حادث دخول الفتاة مرة أخرى إلى غرفته وإيقاظه واستدعائه إلى غرفة المدير ، هذا الحادث أعاد له الأمل فى استعادة قلبها أو رضاها على الأقل ، أو تحول العلاقة إلى مجرى آخر جديد إن لم يكن صداقة فليكن معرفة ، وهو على أى حال ليس عداءاً أو عنفاً كما كان من قبل . ولكن هذه الأفكار لم تكن لتغنى فتيلا فى تأخير الرحلة عن موعدها المرسوم ، كما أن التمنى لم يكن يغير شيئاً مما قدر ودبر فليستسلم لهذه الرحلة كارهاً أو راضياً فلابد له من عودة ، وهو يعود أكثر أملا فى استعادة القلب النافر ، وفى بناء العلاقة على أساس أقوى وأمكن ، وكان صاحب الفتى قد حضر إلى غرفته يستعجله ، واستدعى معه من الخدم من يحمل متاعه .

ومضى الفتى وصاحبه إلى خارج المستشفى فوجدا سيارة فى انتظارهما وقد وضع الخدم بها متاعهما فانطلقا أو انطلقت بهما وفى نفس الفتى حاجات وفى قلبه لبانات .

قضى الفتى ورفيقه ليلتهما فى النزل الذى نزلا به أول ليلة دخلا فيها إلى القرية وانطلقت بهما السيارة فى البكرة الندية إلى القرية المجاورة فقضيا يومهما بها .

لم يكن فى هذه الرحلة أى حدث يستحق التسجيل فالقرى متشابهة تقريباً فى مناظرها ، والحياة فيها تجرى على نمط طبيعى معقول ، والمناظر تكاد أن تكون هى نفس المناظر التى ألفها الفتى فى هذا الريف الهندى الجميل ، وكان صاحب الفتى لا يدع وسيلة من وسائل التسلية والسرور إلا أدخلها على نفس الفتى ، ولكن فتانا كان فى شغل عن هذا كله ولولا حياؤه من صاحبه لفرّ عائداً من أول يوم ولاختصر هذه الرحلة اختصاراً أو ألغاها إلغاءً إن كان إلى إلغائها من سبيل ! ومع هذا فقد تظاهر بالسرور ما أمكنه ليشارك صاحبه سروره بالرحلة المشتركة ، ومضت الأيام تباعاً وهما يجوبان القرى فى كل يوم ويتنقلان بين حدائق ناضرة بهيجة ، ومناظر ساحرة بديعة حتى قاربت الأيام المقررة لهذه الرحلة على الانتهاء وفى ذات يوم بينما كان صاحب الفتى نائماً فى غرفته بالفندق وصاحبنا يحاول النوم فيستعصى عليه أخذ الفتى كتاب الإنكليزية الذى يدرس فيه وفتحه فإذا به يجد فيه ورقة صغيرة كان فيها مايأتى :

أيها السيد العربى :

أود كثيراً ، وأنت تتهيأ لمغادرتنا إلى بلادك أن تعلم أنه إن كان قد بدا لك منى شىء من القسوة أثناء إقامتك هنا فإنما كان ذلك ضرورياً بالنسبة لموقفك منى . ولا أريد أن تعود إلى بلادك وفى نفسك شىء من الموجدة علىّ .

أصدق دعائى وأطيب تمنياتى — المخلصة

كيتى

لم يفهم الفتى ما جاء فى هذه الرسالة القصيرة لأول وهلة وظن أنها ربما وقعت خطأ فى كتابه وقد تكون موجهة إلى غيره، ولكن الخطاب كان موجهاً إلى السيد العربى ، وكان كل ما فيه ينبئ أنه من صاحبته ، وطار الفتى سروراً وأخذ يمشى فى الغرفة جيئة وذهاباً، وتدفق الدم إلى وجهه وأخذ ينظر إلى نفسه فى المرآة ويقفز ضاحكاً كأنه طفل صغير يستطير فرحاً بلعبة جديدة وقرأ الرسالة مرة ومرة وقبّلها ماشاء الله له أن يفعل ثم وضعها بعناية كبيرة فى جيبه الداخلى قريباً من القلب كأنما هى كنز ثمين .

وأصبح من همّ الفتى أن يعود إلى القرية وإلى المستشفى وإلى «كيتى» الحبيبة بأسرع ما يمكن من زمن، وأخيراً آن لصاحب الفتى أن يستيقظ من نومه وأن يجتمعا إلى مائدة الشاى بعد العصر كما تعودا واحتال الفتى ليفهم صاحبه أن من الخير لهما أن يعودا من حيث قدما. وقرر صاحبَ الفتى أن تكون العودة فى الصباح التالى ، وإنه لقريب.

— ١٤ —

الزمان ربيع ، والوقت ضحى ، تسطع فيه الشمس ، ويهب النسيم مشبعاً بالعطر والزهر، والمستشفى فى أوج حركته ونشاطه ، ونزل الفتى وصاحبه من السيارة فاستقبلهما الخدم بالتحية والتكريم ، يخصون ضيفهم العربى الكريم بالكثير من الحفاوة والرعاية فقد كان كثير البر بهم ، حسن الدعابة معهم ، وكانوا قد ظنوا كما ظنت «كيتى» أنه راحل إلى بلاده عنهم فكم كانت فرحتهم بعودته بعد أيام

قلائل ، وكم كانت فرحة قلبه بهذه العودة السعيدة إلى مهد الهوى والمنى .

ومضى الفتى وصاحبه يحف بهما الخدم يحملون الأمتعة فى طريقهم إلى غرفة الفتى وإذا صاحبتنا كيتى تلقاهم فى الطريق ، ولم تكن دهشتها بأقل من دهشة الآخرين بهذه العودة المبكرة أو غير المرتقبة ، وكانت آثار الانفعال ظاهرة فى وجهها بشكل لا يدع مجالا للريبة أو الشك ، وكانت انفعالاتها متباينة فيها الدهشة والسرور ، والخوف والدهشة . لاستقبال عائد غير منتظر، والسرور بهذا اللقاء ، والخوف من ماذا ... أمن المجهول ؟ أم من الحب؟ أم من القدر الذى يتنظر بالقلوب ؟

ووقفت الفتاة جامدة كتمثال وتقدم إليها رفيق الفتى فعرفها وحياها فاضطرت إلى قبول تحيته وردها فى أدب وقال الرفيق : هأنذا قد أعدت ضيفكم مرة أخرى ، وقد ظننتم أنه لن يعود فيما يبدو لى اليوم ، ونظر إلى الفتى فإذا هو بادى الارتباك ، مصفر الوجه ، مرتجف الأطراف ، قال الرفيق فى لهفة :

ما بك يا صاحبي أتحس شيئاً ؟ قال الفتى — ونظر إلى صاحبته من طرف خفى — : كلا ، إنما هو دوار بسيط أحسست به الآن ومن الخير أن أذهب إلى السرير لأرتاح قليلا ، قال الرفيق : بل نستدعى لك الطبيب ليراك ، وأشار إلى الفتاة أن تذهب لاستقدام الطبيب ليوافيهم فى غرفة الفتى ونظرت كيتى إلى أسامة ونظر أسامة إليها وانطلق كل منهما فى سبيل .

كانت هـذه العودة وما تلاها من حوادث قصيرة بدء علاقة جديدة بين الفتى وصاحبته تختلف عما كان بينهما كل الاختلاف ، فلم تكن الفتاة لتلقى الفتى من بعـد بما كانت تلقاه به من زراية أو تجاهل ، ولم تكن تتعمد البعد عنه كلما لقيته ، بل كانت تلقاه باسمة فى رقة، وكان يقابلها فى أدب جم ، وإن كان لايخفى سروره بها كلما لقيها ، وكان هذا السرور يظهر لعينيها النفاذتين كما لايظهر لأى إنسان .

ولسنا فى حاجة إلى أن نقول إن الطبيب لم يجد بالفتى ما يدعو إلى القلق وأشار عليه بالراحة والهدوء سحابة اليوم ، وانصرف رفيق الفتى عائداً إلى بومباى بعد أن اطمأن إلى صحة الفتى وإلى أن ما به كان عارضاً وقتياً قد زال بعد حين .

لم يجرؤ أسامة أن يتحدث إلى صاحبته فى أمر الورقة التى لقيها وكانت هى تتساءل بعينها كلما لقيته أتراه قرأ الورقة أو وجدها ؟ وكان هو كثير التردد فى الإقدام على الحديث فى المسألة خشية من قطيعة جديدة . وكثر لقاء الفتى والفتاة فى الأيام التالية خصوصا وأن الفتاة قد نقلت للخدمة فى الجناح الذى يشغل الفتى غرفته منه ، وأصبح من واجبها أن تراه يومياً وأن تأخذ مقياس حرارته وتعنى بأمره . وفى اليوم الثالث لعودة الفتى إلى المستشفى بينما كان مستلقياً على سريره وبيده كتاب الإنكليزية دخلت كيتى وبيدها مقياس الحرارة

وطلبت منه أن يضعه فى فمه فوضع الكتاب جانباً وإذا بالرسالة تظهر منه وكانت هى تديم النظر إلى الكتاب من حين أن رأته فى يديه وأخرج الفتى الورقة وكأنه لم يقرأها من قبل ونظر فيها ثم أدار النظر إلى الفتاة وكأنه لم يقرأ الرسالة قبل اليوم فوجدها تبتسم فى ارتباك وتودّ لو أمكنها استرجاع هذه الرسالة ، فتبسم الفتى وقال :

إننى أنا الذى يجب أن أعتذر يا كيتى . فقد كان ما وقع جنوناً وقد أسفت عليه أعظم الأسف. قالت : فلنترك هذا الأمر جانباً فلاخير فى العودة إليه .

قال الفتى : كلا بل الخير فى أن نعود إليه ، فقولى يا صديقتى أعفوت عنى حقاً ؟ فإنى لن أبرأ من علتى حتى أعرف أنك صفحت ونسيت كل ما مضى .

قالت : فإنى قد عفوت فلتبرأ ولتعد إلى أهلك وبلدك إن كان السماح كفيل لك بالبرء والشفاء .

قال الفتى : أما هذا فلا ، ونظر إليها نظرة تجلى فيها كل حبه العظيم. نظرة فيها الضراعة والأمل والخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة . ونظرت هى إليه فى خفر ، وصمتا وتكلم بينهما الهوى .

قال الفتى ــ وقد عرف عنها ما كان يجهله أو يشك فيه :

أو تريدين حقاً أن أعود إلى بلادى وأهلى ؟

قالت الفتاة : ولم لا ؟ أليس من حق الغائب أن يعود ، بعد أن يقضى وطره من الغياب ؟ !

قال : حقاً ما تقولين ، ولكن لى هنا أوطار ما أظنها تنتهى فى يوم من الأيام . لقد كنت على وشك أن أطلب العودة إلى بلدى لو سمح بها الطبيب ولكنى الآن لا أفكر فى العودة يوماً من الأيام .

إننى هنا مقيد إلى هذه الأرض الطيبة بقيود من ذهب وخيوط من حرير ، ولن يستطيع إنسان مهما بلغت قوته أن يحطم القيود الذهبية أو يقطع برغبته خيوط الحرير . لقد قرأت رسالتك يا كيتى وأنا مع صاحبي فى الريف والدنيا كلها سوداء فى عينى ، فكانت هذه السطور القليلة نوراً لعينى وبرداً على قلبي وسلاماً . كونى على ثقة أن الفتى الماجن الذى تعرفينه قد زال من الوجود ، وأنا منذ أن عرفتك وعرفت منك ما عرفت شخص آخر مختلف عن أسامة الماجن كل الاختلاف .

إنك أول فتاة علمتنى أن أحترمها ، فأنا مدين لك بما ترين من أدبى واتزانى ، لقد نلت منى فى ساعة واحدة ما لم ينله أبى ومربيّ وأساتذتى فى أعوام وأعوام ، ولن أطمع منك فى أكثر من الصداقة... الصداقة الخالصة والعطف . فقولى بالله هل تضنين بصداقتك على غريب مريض ؟

قالت : إننى أنا الأخرى أسفت على ما فرط منى تجاهك ، لقد كان واجباً أن ألقاك بالقسوة ولكنى أدركت فيما بعد أنى قسوت أكثر مما يجب فخالجنى لذلك شىء من الأسف . وفى ذات صباح لقينى رفيقك العربى فطلب أن أدعوك إليه فى غرفة المدير وفهمت

منه أنكما راحلان فكتبت إليك هذه السطور على عجل لتقرأها يوماً مّـا فتعفو عن قسوتى ، فكان كل عزائى أنى بهذا قد كفرت عن قسوتى ، ولم أكن لأظن أنك ستعود هكذا سريعاً وإلا ...

قال الفتى : وإلا ماذا ؟

فضحكت الفتاة وقالت : وإلا لما كنت كتبت شيئاً .

قال : فإنى أحمد الله إذاً على هذه الرحلة التى استرجعت بها رضائك عنى وحدبك علىّ .

وكان الحديث قد طال ونسيت الفتاة أن واجبها ينتظرها فى غرف كثيرة فنظرت إلى ساعتها فى دهشة وقالت : لقد مضى الوقت وأنا لم آخذ حرارتك بعد وعلىّ أن أمر بهذا الجناح سريعاً . وانطلقت إلى خارج الغرفة لتتدارك ما فات وقال الفتى وهو يودعها :

لاحاجة بى اليوم إلى ميزان الحرارة ولا إلى كل أطباء العالم فإنى صحيح كما لم أكن صحيحاً يوماً ما . وتضاحكا ، وقفز الفتى من فراشه كأنما نشط من عقال . وبدت الدنيا فى عينيه أجمل ما تكون .

الشمس ضاحكة مشرقة ، والهواء رقيق ندىّ ، والطير يغنى للزهر ، والأغصان تميل مع النسيم كل مميل ، والجداول تصفق طروبة ، والخضرة تسرى فى الأغصان ، والحياة كلها نغم جميل ساحر يهتف بالحب والهناء .

ومضت أيام أسامة وكيتى كأسعد ما تمضى الأيام بين فتى وفتاة يكتمان الهوى وتبديه أعينهما. كان يلقاها فى بكرة الصباح فى حديقة

المستشفى تحت تمثال بوذا حيث رآها أول يوم ، ويلقاها فى حجرته مرات ومرات ، وربما لقيها مساءاً فى الحديقة أيضاً ان كانت فارغة من عمل ، وكان أصعب الأيام عليه يوم اجازتها وكانت تقضى أيام الآحاد خارج المستشفى فكان بدوره يطلب الخروج فى ذلك اليوم والبعد عن المستشفى للفسحة فى المدينة .

وكان الهوى يلعب دوره بينهما فى رفق وهدوء ، وكان هو قد أخذ نفسه بالحزم فلم تظهر منه أى بادرة من بوادر النزق السابقة ، وقال لنفسه إن نجاحاً كبيراً أن استطعت أن تبلغ منها حتى اليوم هذا المبلغ ، وأن تستبدل القطيعة بالوصل ، والجفوة بالرضا ، والعداوة بالصداقة والعطف . وإن الحب سيأتى يوماً ما ، بل هو واقع فعلا وإن كان حظك منه أكبر وأقوى وأعمق ، وإن كنت تحمل منه ما لا تطيق ، ولكنها هى أيضاً تتطور عاطفتها إلى الحب ، فلتصبر لتبلغ ما تريد .

وكان الفتى يحرص على أن يحبب إليها نفسه وأن يخلق من الموضوعات والحوادث ما يطيل به أمد بقائهما معاً ، وكان يريد أن يشعرها بأن ما يحسه ليس مجرد هوى طائش وإنما هو حب مكين ، كما حاول أن يصلح من نفسه ليظهر فى عينيها بمظهر الرجل الجدير بالاحترام .

وكانت هى — كما سبق أن علمنا — فتاة غير عادية ، فقد نشأت وولدت فى طبقة المنبوذين من أسرة فقيرة مترّبة ومات أبوها وهى

طفلة تحبو فكفلتها أمها وعنيت بأمرها ، ونشأت بين قومها فقيرة منبوذة . ثم ان أسباب أسرتها اتصلت بأسباب بعثة تبشيرية مسيحية وفدت إلى المنطقة التى تعيش فيها ، واستطاعت البعثة بشتى وسائل الإغراء أن تدخل كثيراً من الفقراء فى الدين المسيحى . وكانت والدة الفتاة إحدى المسيحيات الجديدات ، ولتنصرها قصة لابد وأن نسردها باختصار ؛ فقد مرضت الفتاة حتى أشرفت على الموت وذهبت بها أمها إلى مستشفى البعثة المسيحية تتطلب لها العلاج فرحب أطباء البعثة بها ، وبذلوا لها من العناية والراحة ووسائل الإغراء ما أعاد إلى الفتاة صحتها وحفظ عليها شبابها ، وتأثرت الأم لما رأت أى تأثر ، وكانت الفتاة وأمها قد التحقتا بخدمة المستشفى بمرتب حسن وماهى إلا أيام حتى توصلت البعثة إلى أغراضها باعلان أنه لا يمكنها قبول موظف فى المستشفى إلا إذا انخرط فى سلك الديانة المسيحية. وكان هذا الدين الجديد قد صادف من نفس الفتاة هوى بعد أن أدامت النظر فى الإنجيل واستمعت إلى القداس واشتركت فى الترانيم الكنيسية مرات ومرات . أما الأم فلم يكن دافعها إلى الدخول فى الدين الجديد إلا الاحتفاظ بما تفيده من معاش حسن وفوائد محسوسة ، وهكذا أصبحت كيتى مسيحية بعد أن كانت وثنية ، واستمعت إلى محاضرات كثيرة فى التمريض كما مرنت عليه ، وأتيح لها فى هذه السنوات الأولى أن تدرس الإنكليزية دراسة وافية تتيح لها القراءة والاطلاع فتفتح ذهنها وأصبحت فتاة ذات طماح . والتحقت بمدرسة ليلية تابعة للإرسالية المسيحية لدراسة التوليد ، وكان من

آمالها أن تصبح يوماً طبيبة لو أمكن ذلك أن يكون ، ولكن الحياة لا تسير دائماً كما يشتهى الناس أو يقدرون ، وإنما تسيرهم وفق ما تشتهى الأقدار ؛ فقد مرضت والدة الفتاة كيتى مرضاً خطيراً وأشار عليها الأطباء بالرحلة إلى جوكولا للاستفادة من الجو الحسن فى هذه القرية الساحرة ، ووفدت الفتاة وأمها إلى هذه القرية واستأجرا حجرات فى بيت صغير وتقاعدت الأم للاستشفاء والتحقت كيتى — بتوصية من مدير البعثة المسيحية — بالعمل فى المستشفى الذى نزل فيه الفتى بوظيفة ممرضة ممتازة ، وأعفيت بصورة خاصة من خدمة الليل للعناية بأمها المريضة والسهر على راحتها ، وقد أفادت الأم عافية من هذا الجو الساحر ، واضطرت الفتاة إلى أن تقطع دراستها الليلية وأن تقنع بما قسم لها على مضض ، ولكنها لم تقنع بذلك تماماً فقد كانت تتردد باستمرار على مكتبة القرية وخصوصاً فى أيام الآحاد لتقرأ من كتب الطب والصيدلة ما تستطيع به أن تنمى معارفها الابتدائية فى هذا الفن ، ولاحظ أمين المكتبة نشاط الفتاة وأدبها فكان يسمح لها باستعارة ما تحتاج إليه لمواصلة القراءة والدرس .

وكانت كيتى هى كل أمل والدتها ، وكانت كما رأينا فتاة بارة عطوفاً ، وكانت الأم تصحبها فى كل صباح من دارهما إلى المستشفى وتعود لاستقبالها فى المساء لتعودا معاً ، وكانت حياتهما بسيطة مختصرة ؛ فكيتى تضع فى يد أمها ما تأخذه من روبيات قليلة من إدارة المستشفى لتدبر الأم بها أمورهما ، وكانت الفتاة تتناول وجبة

غذائها فى المستشفى بحكم عملها ، فكان ما يرد لهما يكفيهما فى شىء من الضيق ، إلا أنه يمكن القول أنهما كانتا سعيدتين بحياتهما البسيطة ، بما يتخللها من حب وانعطاف .

وكانت الفتاة – وقد أدبها الفقر ، وثقفها الدرس – تعرف أنها من طبقة منبوذة مظلومة ، وقد حمدت للظروف أن أتاحت لها حظاً من العلم ففتحت عينيها على ما يقاسيه أبناء طبقتها من إخوانهم فى الجنس والوطن من ظلم وضيم ، ولم يكن فى طوقها أن تبدل شيئاً من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ولكنها كانت فى نفسها ثائرة مترفعة فآثرت العزلة لئلا تصطدم بإهانة أو تحقير . وقد أفادها هذا حصانة ووقاراً غريبين فى مثل سنها وفتوتها وجمالها ، واستطاعت أن تحتفظ بكرامة نفسها وعزتها ، ولم يكن لها من أمل فى الزواج فهى وقد أوتيت حظاً من العلم لا تقبل أن تتزوج من جاهل ، أو تتزوج من رجل لا يحترمها أو يقدرها ، وهى من طبقة مقضىّ عليها بالاحتقار فى عرف العادات الظالمة والجهل الفاضح . لهذا جعلت من همها أن تنال من العلم أقصى نصيب ، ولكن هذا كان بلا شك سيذوى شبابها يوماً ما ، وكان هناك من يحومون حولها ، ولكنها لم تكن تميل إلى أحد منهم أو تلتفت إليه فكلهم فى نظرها أنانى ، أو جاهل ، أو عربيد .

واتصلت أسبابها بأسباب فتانا ، كما عرف القارئ ، وكان احتقارها له شديداً فقد أهان عزتها ، وتجرأ عليها بما لم يتجرأ به امرؤ من قبل ، وكانت تظن أن الفتى وهو الماجن العربيد سيطيل مطاردتها والاثقال

عليها ، فإذا بها تلحظ آثار الندم ظاهرة عليه ،وكان بعد ذلك ما كان من أمر الرسالة التى قدمها لها فسحقتها بقدمها ، ثم خشيت أن تتركها فى موضعها فيقرأها قارئ فيتقول بها الأقاويل فانثنت بعد أن ذهب الفتى والتقطتها ، ولكن فضول الأنثى دفعها اقراءتها فأسفت على ما فرط منها تجاهه ، فقد كان آخر ما يخطر ببالها أن يعتذر ، وكانت تظن أنه يطارحها الهوى أو يغريها فإذا بها تجد اعتذاراً مؤدباً. ومرت الأيام وآثار الشحوب والهزال والسهوم تزداد على وجه الفتى ، وفى نفس الوقت تزداد هى ندماً وأسفاً ، وكف الفتى عن رؤيتها أو تفاداها كما علمنا من قبل ، ولم تجد هى من العقل أن تبدأه بشيء بعد ما كان منه وكان منها ،ولكنها خشيت — وهى الفتاة الرقيقة المتعلمة — أن تزيد العلة بالفتى فيقضى عليه ،وتطور أسفها إلى اشفاق أو خشية أو عطف ، حتى كان اليوم الذى رأت فيه رفيق الفتى يحضر إلى المستشفى ويغادره بصحبة الفتى إلى غير رجعة كما صور لها خيالها وإشفاقها ، هنالك ذهب كل ما كان فى نفسها من أسباب التردد ورأت أن من واجبها أن تعتذر إليه فتركت له الرسالة التى عرفناها حينما ذهب إلى مقابلة صاحبه فى غرفة المدير.

وخالج الفتاة شيء من الأسف على فراق الفتى العربى الغريب المريض ، وصارت ذكراه تراودها كلما مرت بالغرفة التى كان يشغلها ، أو كلما مرت بالمواضع التى لقيته بها ، وقالت لنفسها يوم أن رحل وكانت تنظر إليه من حيث لايراها ، وآثار الشحوب بادية على محياه :

ترى ما الذى كان يحصل لو أننى خففت من غلوائى تجاه هذا الغريب المريض؟! ألم أكن أفدته عافية وصحة وهولم يترك بلده البعيد إلا لطلب الصحة والعافية . لقد أساء إلىّ حقاً ولكنه قد كفر عن إساءته أعظم تكفير وقد رأيت ذلك وشهدته بما لم يدع مجالا للشك فى نفسى فماذا بعد لو أنى قابلته فى رقة ، وخاطبته فى أدب ،وقبلت اعتذاره وأوقفته عند حد لا يتعداه؟ ولكن ما الفائدة الآن وقد رحل.. رحل إلى غير عودة ، وهل يا ترى قرأ الرسالة أم سقطت دون أن يشعر بها ؟ وماذا سيكون شعوره بعد أن يقرأها ، أتراه يعفو عن قسوتى بعد ذاك ؟ وأصبحت أمثال هذه الهواجس شاغلا لها ، ولكنها ما كانت لتسمح لها أن تتجاوز خيالها ، حتى كان اليوم الذى عاد فيه الفتى ورفيقه فاذا بالعواطف المكبوتة تنفجر فى نفسها بعد أن رأت من آثار ارتباك الفتى وانفعاله أنه ينطوي لها على حب عظيم مقيم .

- ١٦ -

الليلة ساجية رقيقة النسمات ، والبدر يرسل أشعته الرطيبة على الحقول المنبسطة حول القرية ، والجداول المتناثرة هنا وهناك ، فيخيل للرائى أنه فى عالم ساحر غريب ، ورائحة ثمر المانجو زكية عطرة ، وأشجار النارجيل يميل بها النسيم كل مميل ، والأزهار تفتقت عن أكمامها والطيور توصوص فى أوكارها ، وكيتى وأسامة فى الشرفة الرحبة ، يمتعان العين والنفس بهذه الدنيا الساحرة الفياضة بالفتون .

وملأ أسامة رئتيه بالهواء النقى الرقيق ، وتطلع إلى البدر وهو يحبو فى كبد السماء ، ومن حوله الزهرة تتلألأ كالماسة فى عنق الحسناء. ثم أرسل النظر إلى الحقول السندسية المنبسطة فوق الأديم وانثنى جالساً فوق كرسيه الطويل وقال لكيتى وهو ينظر إليها :

تأملى أيتها العزيزة هذه الدنيا الساحرة وانظرى إلى بديع صنع الله خالق هذا الكون الجميل .

قالت الفتاة : حقاً إنها ليلة ساحرة ، ولكن ليالى الربيع ساحرات على الدوام .

قال الفتى ؛ يخيل إلى يا كيتى حينما أنظر إلى الطبيعة محاولا اكتناه أسرارها ، أن الله جلت قدرته جعل الحب والتعاون سر الحياة فى هذا الوجود . انظرى إلى هذا البدر الساجى الساحر الذى يرسل نوره الرقيق كأنسام الفجر العذبة ، وانظرى إلى هذه النجمة المتلألئة التى يدعونها الزهرة يخيل إلىّ أنها تنظر إلى البدر وترعاه وأنه كلما ازداد نوراً ازدادت هى سروراً ، وإنه ليخيل إلى أن بينهما من الحب والتعاون ما يكفل لهما هذا الانسجام البديع ، بل هذا البدر الذى يقولون إنه عكس لإشعاعات الشمس والذى يسير معها فى نظام فلكى بديع ترى لو لم يكن بينه وبين الشمس هذا التعاون أى ليل مظلم رهيب كان يسيطر على الدنيا ، فهو يبدو حينما تغيب الشمس ، وتشرق هى حينما تغيبه السماوات . وهذه الحقول الجميلة بما حوت من أزهار وثمر ، ومن خضرة مونقة وورود متفتحة ، إنما تقوم على التعاون والحب ؛ فالسماء تروى الأرض بالماء لتكون

صالحة للزرع ، والماء يسرى فى الغصون فتورق وتزدهر وتثمر ، والطبيعة كلها تتعاون لإخراج الزهر والثمر ، الأرض بما حوته من بذور وماء ، والشمس بحرارتها ودفئها ، والهواء بسمائمه وشمأله ، والسماء بغمامها ومائها ، والإنسان بجهده وعقله يرتب هذه الأمور وينظمها ليضمن لها الانسجام والنجاح .

بل هذا الإنسان الذى هو أرقى المخلوقات ، ترى لو لم يكن التعاون والحب مركباً فى طباعه أىّ مخلوق كان أو يكون ، حتى العجماوات إنما تعيش فى جو من الألفة والتعاون والحب لتنتج وتنفع وتحيا .

قالت الفتاة : فإنى أراك اليوم تمزج الشعر بالفلسفة فأىّ وحى هذا الذى هبط عليك ؟ لقد عهدتك يا صديقى طروباً متفتح النفس للحياة ، أما الشعر والفلسفة فما هما من بضاعتك ... !

قال : حقاً ما تقولين ، ولكنى الآن أشعر أنى أصبحت إنساناً آخر ، لقد ذهب الشاب الطروب الذى تعرفين ، وتبدل فأصبح رجلا كثير التفكير والبحث ، وأصبح الخيال مادة من مواد التفكير عندى حينما تعوزنى الحقائق ، وهى تعوزنى دائماً ، فإذا كنت بهذا قد أصبحت عندك من فصيلة الشعراء فأنا منهم على التحقيق .

قالت — وألقت بوجهها إلى البدر فتسلط إشعاعه عليه :— يخيل إلى أن هذا البدر هو سر القصة كلها ، فلو كانت الليلة داجية مظلمة لما بدت لك هذه الطبيعة ساحرة رقيقة ، ولكن ضياء البدر الساحر الذى يشمل الكون كله فى حلة رقيقة ، ساجية ، أوحى إليك أن هذه الحياة رقيقة ساحرة ! .

قال : أما هذا فصحيح ، إنى أحب القمر بضيائه وسحره ، وأحب الطبيعة رقيقة ساجية ، والهواء عذباً سجسجاً ، وأحب أنسام الصباح وضيائه ، وأحب الغمام الرقيق .

قالت : أما أنا فعلى العكس إنى أحب الليالى داجية لا يشرق فوق صفحاتها قمر ، وأحب الهواء عاصفاً لا يبقى ولا يذر ، والسماء تتفجر بالصواعق والبرق ، وتملأ الأرض بالثلوج والماء . وأحب البحر مزبداً هائجاً رهيباً . إن هذه المناظر تمثل لى قوة الطبيعة وجبروت الخالق ، وأنا دائماً أحب القوة والجبروت .

قال الفتى — وقد أخذته هزة وأمسك بيدها فنسيتها فى يديه — : أتعرفين أنك تخيفيننى يا كيتى بهذا الذى تقولين . فرفعت وجهها إليه ومرّت بيدها على شعره وقالت : أخائف حقاً يافتاى الصغير ؟ وأدنى يدها فى رفق من فمه فقبلها قبلة حب وإجلال ، ورفع عينيه إلى عينيها ، وبدت هى كأنما تنظر إلى بعيد وهو ينظر فى عينيها . واختفى البدر فى قلب الغمام ، ورجف قلبان ، والتفت ذراعان ، والتقت شفتيه بشفتيها فى قبلة عميقة كالزمان ... ومكثا لحظة عيناها فى عينيه وذراعاه تحيطان بخصرها الواهن ويداه تمسحان شعرها الأثيث الجعد وفى قلبيهما زلزلة رقيقة وأنفاسهما لاهثة ، لحظة لا تحد بالدقائق والساعات فى عمر الزمان ، ولكنها أعظم ساعة فى تاريخ القلب الإنسانى كله على مدى الأزمان .

وأطل البدر من أحضان الغمام فنحّت يديه فى رفق وابتعدت عنه قليلا وبدا على وجهها آيات من اللوم والتفكير . وتنهدت من أعماق قلبها فى سكون . ثم قالت : كيف وقع هذا ؟

قال الفتى – وفى صوته نبرة راجفة –: إنه الحب يا عزيزتى . إنه قدرنا المكتوب . وهل ينجو إنسان من قدره ؟ إن الله خلقنا هكذا لنحب ونتعاون ونحيا .

قالت : فانى ما كنت أود أن هذا يكون .

قال الفتى – وقد بدا على وجهه شيء من الحزن والسهوم ما لبث أن انقشع –:

إن المسألة ليست إرادتى أو إرادتك إنه قانون الحياة ، نخضع له راضين أو كارهين ، يخيل إلىّ أننا خلقنا أنت وأنا لنحيا معاً ، أشياء كثيرة هى التى تجمع بيننا يا عزيزتى . كلانا شاب فى سن الحياة والحب ، وكلانا غريب ، أنا غريب الديار والأهل ، وأنت غريبة بما حباك الله به من أخلاق حصينة متينة ، وهذا التآلف تصورى شاباً غريباً يقطع عشرات الألوف من الأميال ليلقى قدره هنا فى بلاد لا يعرف لغتها ولا أهلها ولا دينها ، وفتاة تقطع مثل هذه الرحلة فى عالم القلوب لتلتقى بفتى من غير جنسها ودينها وأهلها ، إنه حكم القدر الذى لا مفر منه فلم لا نفرح به ؟ ولم وقد ألقت علينا الطبيعة أولى آياتها وأحكامها لا نمتثل راضين ؟ انى أقدم لك حياتى فهل تقبليننى زوجاً ؟

قالت الفتاة : أما هذا فانى أرجو أن تؤجل الحديث عنه الآن .

قال : أما أنا فأرى أن هذا هو وقت الحديث فيه ، ومع ذلك فإنى أرجو أن تفكرى فيه كثيراً وكثيراً وأنا منذرك منذ الآن بأنى

سأطيل فيه الحديث حتى أظفر بالجواب الذى أريد .

قالت ــ وكأنما أرادت أن تغير وجهة الحديث ــ :

أتعرف يا عزيزى أن غداً يوم عيد النيروز؟

قال الفتى ــ وقدتذكر أمراً ــ : وغداً ياحبيبتى يوم عيد الأضحى وهو أكبر الأعياد عندنا معشر المسلمين وفى بلادى على التخصيص .

قالت : إذاً فهذه ليلة عيدين ، قال : كلا بل هى ليلة ثلاثة أعياد ... وابتسما ووقف الفتى مودعاً وأخذ يد كيتى فى يديه فضغطها محيياً وانصرف وفى قلبه ونفسه أحاديث وفتون .

- ١٧ -

لم يسعد الفتى من قبل كما سعد بهذه الليلة الساحرة التى أتينا على وصف ما دار فيها فى الفصل السابق ، وكانت كيتى قد دعته إلى دارها لتعرّفه إلى أمها بعد أن توثقت بينهما الصداقة واطمأنت إليه ، وذهب عنها ما تخشاه منه . وبعد تناول الشاى آوت والدة كيتى إلى سريرها وخرجا ــ أسامة وكيتى ــ إلى الشرفة ليختم الحب على قلبيهما بخاتمه السحرى الوثيق . ومضت أيام الفتى سعيدة راقصة وأفاده هذا صحة وعافية فأشرق وجهه والتفت عضلاته وبدا سعيداً قوياً حتى أذن له الطبيب بمغادرة المستشفى والسكنى خارجه .

وبحث الفتى فوجد نزلا قريباً من دار الفتاة ، وهكذا أصبح يقضى أمسياته وأيام الآحاد معها على الدوام . وازدادت علاقة الفتى بكيتى ووالدتها على الأيام توثقاً وقوة . وكان الفتى لا يترك فرصة

تمر دون أن يطرق معها حديث الزواج ، وكانت هى تهرب من هذا الحديث أو توقفه ما استطاعت ، وكان هو من جانبه لا يسأم العودة إليه بشتى الطرق والأساليب .

وفى ذات يوم خرجا — أسامة وكيتى — للتريض فى الحقول خارج المدينة ،وكان عصر يوم أحد ،وجلسا إلى غدير رائق نمير ،يجرى تحت أقدامهما وقد قامت من حوله أشجار النارجيل تظللهما بظلها الوارف ، ورائحة الورود تعطر الجو بشذى رقيق . أمسك أسامة بيد كيتى ونظر إلى عينيها نظرة فيها كثير من الرقة والخضوع ثم قال : أما آن لك يا عزيزتى أن تزيلى هذه الغمة التى تجثم على صدرى ؟

فنظرت إليه وقد فتحت عينيها جداً : وأى غمة هذه التى تجثم على صدرك منى ، إن كان فى صحبتى لك ما يشق عليك ؟

وكان قد أدرك أسامة أنها تغالطه فوضع يده على فمها وقال : أرجوك . أرجوك يا كيتى أن لا تغالطى وكفانى إيلاماً ...

قالت : وهل فى كلامى ما يؤلمك ؟ إنى إذاً معتذرة لك !

قال : وهذه أيضاً مغالطة ، لنتكلم يا عزيزتى فى وضوح ، إنى أعرفك فتاة عاقلة صريحة ، بل أنت أعقل من عرفت من الفتيات حتى الآن .

قالت : أو قد عرفت الكثيرات ؟

قال : دعينى بالله من هذا الآن ولنتحدث عنه فى فرصة أخرى ، فإنى أريد أن يكون بحثنا اليوم حراً صريحاً ، فاسمعى ما أقول ولا تقاطعينى .

قالت : فإنى لك ما تشاء أيها الدكتاتور الصغير .

قال : إنك فتاة عاقلة صريحة، وأنت تعرفين أن العلاقة بين فتى مثلى وفتاة مثلك لا يمكن أن تنتهى الى نتيجتها الطبيعية إلا بالزواج ، وأنت تعرفين أيضا ما أكنه لك من حب قوى عميق وقد خبرت من أخلاقى ما آمل ان تكون نتيجته فى مصلحتى ، وأنا لا أعرف أنى أستطيع أن أحيا بدونك ، إنك لى كالماء يروى به الظمآن ، وكالهواء يتنفس فى جوه الإنســـان . بل أنت لى كالنور فى العينين وقد أبدلنى الله بك نورا بعد ظلمة ، وفرحة بعد ترحة، قولى بالله هل رأيت إنسانا يترك النور و يبقى فى الظلام ؟

قالت : أما وقد أردت الحديث جادا فإنى أقارضك جداً بجد وصراحة بصراحة .

إنى أعرف ما تكنه لى ، وأنت تعرف ما أكنه لك فــلا حاجة إلى الإفاضة فيه ولكن ما أعجب له منك انك لا تدرك ما بيننا من فروق قد تحول بينك وبين الزواج منى كما تريد .

قال الفتى ــ وقد اعتدل فى مجلسه : وأى هذه الفروق تعنين يا عزيزتى ؟

قالت : تصور أولا انى من غير دينك فأنت مسلم وأنا مسيحية، ثم إنى من طبقة فى بلادى تدعى المنبوذين ، وهنا ظهر الألم الشديد على وجه الفتاة فتأثر الفتى ، ولكنه لم يشـــأ أن يقاطعها فقد كان يود أن يصل بهذا الحديث إلى أقصى نتائجه ، قال : نعم استمرى يا عزيزتى .
قالت : وقد ظهر على وجهها التردد فأخذ يشجعها بعينيه : وهناك

ثالثة الأثافى فأنا فتاة فقيرة ، والفتاة الفقيرة عندنا لا تتزوج ، فكيف تريد أيها العزيز أن تقدم على الزواج من فتاة فقيرة منبوذة تخالفك فى الدين والجنس والوطن والعادات؟ ! !

قال – الفتى وقد أشرق وجهه بابتسامة كبيرة – فهذه هى المشاكل الكبرى فى نظرك يا فتاتى المسكينة ، اعلمى أولا أن دينى من السماحة بحيث لا يحرم علينا الزواج من المسيحيات ، بل هو يحل لنا الزواج من كل كتاب ، والمسيحية دين سماوى يعترف به الاسلام . كما يعترف باليهودية ، وبكل الأنبياء والرسل . قالت الفتاة : أحقا ما تقول . قال : بلى إنه لحق ، أما انك فتاة منبوذة فإننى شخصيا كانسان لا أعترف بهذه الفروق بين الطبقات ولا أقر هذا التمييز بين بنى الانسان ، ان الناس ياعزيزتى سواء لا يتفاضلون إلا بأخلاقهم وأعمالهم ، وأنت بأخلاقك القوية خير عندى من الملكات على عروشهن .

قالت الفتاة : فما يقول دينكم فى طبقة المنبوذين ؟

قال أســـامة : اعلمى ياعزيزتى أن ديننا ليس فيه منبوذون ولا متميزون ، إن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه يقول : لا فضل لعجمى على عربى ، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلـــكم لآدم وآدم من تراب . لقد سوى الاسلام بين الناس ، وأزال الطبقات بتعاليمه السمحة الكريمة ، فأنا إن استرشدت بدينى فى أمرك لوجدت منه العضد والسند .

قالت الفتاة : فانى ما سمعت كاليوم حديثا عجبا .

قال الفتى – وقد سر بما رأى من إصغائها إليه واستجابتها له :

أما الفقر فإنى أولا لست بالغنى ، بل لو كنت غنيا وكان لى ملء الأرض ذهبا لما عدلت بك امرأة فى الوجود . ليس الزواج يا عزيزتى تجارة أوراق مالية حتى ندخل فيه حساب الفقر والغنى ، والثروة والعدم. إن الزواج شركة حياة ، شركة معنوية يتشارك فيها قلبان وتتحد فيها روحان ، فما دخل العقار والدينار ، والزرع والضرع ؟ قالت الفتاة فإنى أريد أن أعرف أيضا رأى دينكم فى الفقر ؟

قال الفتى — وقد زاده استفسارها واهتمامها تدفقا :

أما ديننا فهو دين الفقراء والمساكين ، وما أنصفت ديانة سماوية أو شريعة أرضية الفقراء كما أنصفتهم ديانتنا .

كان نبينا — أفضل صلوات الله وسلامه عليه — فقيرا يرعى الغنم ويرقع نعله ويحلب شاته ويسير فى خدمة أهله ، وكان كثير الحب للفقراء والبر بهم ، وقد دانت له الممالك وفتحت له الأرض كنوزها ، وخفضت له الرقاب ، ولكنه آثر الفقر زهداً فى المال ، وبراً بالفقراء . وكان يعصب على بطنه حجراً من شدة الجوع . وكان يقول: حسب ابن آدم لقميات يقمن صلبه . وكان للفقراء فى مجلسه وداره مقام معلوم يشركهم فى طعامه وشرابه ويوصى بهم أصحابه ، بل إن ديننا هو الدين الوحيد الذى جعل للفقراء والمساكين نصيبا معلوما فى كل عام من أموال الأغنياء والقادرين . قالت وكيف ذلك ؟

قال : إن الاسلام يوجب على كل مسلم يملك مقداراً معلوماً من الذهب والفضة — وشرح لها ما يساويه النصاب الشرعى للزكاة بعملة

بلادها — ان يخرج منه للفقراء والمساكين بمقدار اثنين ونصف فى المائة متى حال عليه الحول ، وكذلك القول فى التجارة وعروضها ، وهناك نظام يختص بزكاة الزرع والحيوان ، بل هناك شيء آخر اسمه زكاة البدن أو زكاة الفطر يتساوى فيه الغنى والفقير، والصغير والكبير ، والخادم والسيد ، والشيخ والطفل الذى لم يتجاوز من العمر يوماً أو بعض يوم .

قالت : وكيف ذلك ؟

قال : إن الله فرض على المسلمين صيام شهر واحد اسمه شهر رمضان يصوم فيه المسلمون المكلفون من الذكور والنساء ، من قبل مطلع الفجر إلى غروب الشمس فاذا انتهى هذا الشهر وجب على كل امرىء ان يخرج عن نفسه وعمن يعولهم من النساء والأطفال والخدم زكاة اسمها زكاة الفطر وتخرج فى يوم اسمه يوم عيد الفطر وهذه الزكاة تكون من غالب قوت أهل البلد ، ومقدارها ما يقرب من أقتين تقريبا ونحن فى بلادنا نخرجها من الحنطة لأنها الطعام الرئيسى فى بلادنا .

قالت : وما يفعل الفقراء الذين لا يملكون شيئا ؟ قال: ان الفقراء فى بلادنا لا يفرحون بشهر من شهور العام كما يفرحون بهذا الشهر ، فقد اصطلح الناس فيما بينهم أن يخرجوا زكاة أموالهم فى شهر رمضان والزكاة إنما هى حق من حقوق الفقراء ، وقد اعتاد الناس أن يوسعوا على أنفسهم وأهليهم وخدمهم فى هذا الشهر فيكسون بالكسى الجديدة ليستقبلوا عيد الفطر وهو العيد الثانى فى بلادنا بالثياب

الحديدة والفرحة بالإفطار بعد الصيام . ثم إن الفقير الذى لا يملك شيئاً يأخذ من غيره زكاة فطره ويخرجها عن نفسه وبهذا يضمن أداء ما فرضه عليه الدين من زكاة الفطر ، ولا يوجد فقير فى بلادنا لا يملك زكاة فطر وفى هذا الشهر فيما أعرف حتى اليوم .

قالت : فان دينكم هذا السمح كريم .

قال : إن الشريعة الاسلامية موصوفة بأنها الشريعة السمحة .

قالت : ولكنى لا أعرف بل أعتقد أن الكثيرين فى بلادنا من غير المسلمين لايعرفون عنها شيئا . لماذا لا ترسلون الى العالم مبشرين كهؤلاء الآباء المسيحين الذين يفدون [إلى أنحـــاء العالم ليبشروا بديانتهم وقد علمت أن بلادكم هى للاسلام كالفاتيكان أو روما بالنسبة للمسيحية ؟ .

قال : نعم ان بلادنا هى كعبة الإسلام منها خرج النور وإليها يعود ، وإليها وحدها يحج المسلمون من كل حدب وصوب ، أما تقصيرنا فى الدعوة للاسلام فهى حقيقة ملموسة لا شك فيها . ولكننا نعتذر عن ذلك بحالة بلادنا وما هى عليه من فقر ومتربة ، ومن نقص فى التعليم ووسائل الحياة ، وأنت تعلمين يا عزيزتى أن الفقير الجاهل لا يستطيع أن يرشد غيره ويعلمه . قالت : فان ما علمته اليوم من تعاليم ديانتكم كفيل بأن يأخذ بيدكم إلى الحياة الصحيحة التى تقوم على المحبة والعلم والسلام .

قال : إن الحق ما تقولين ولكن الظروف التى حاقت بالمسلمين هى التى أخرتهم وليس الإسلام هو السبب ، بل إننا لو تمسكنا

بتعاليم ديننا كل التمسك لدانت لنا الدنيا وكنا السابقين كما كان أسلافنا فى العصور الماضية أيام مجد الإسلام وعزه .

قالت : فانكم لا تتمسكون بتعاليم ديانتكم إذاً ؟

قال : ليس هذا تماماً، إن الناس هم الناس فى كل زمان ومكان والشرائع قيود كما تعلمين ، والنفس الإنسانية تحاول أن تكسر القيود وإن كانت فى مصلحتها ، ولعل بلادنا هى خير بلاد المسلمين من ناحية التمسك بشعائر الدين ومظاهره ، فالسارق تقطع يده ، والسكير يجلد ، والأخلاق ما تزال بخير ، والأمانة والثقة متوفرتان بين الناس فى أغلب الأحيان .

قالت : أليس فى بلادكم مراقص أو ملاهى كما هى الحال عندنا ؟

فضحك أسامة وقال : إن بلادنا لا يمكن أن تظهر فيها المرأة فكيف يكون فيها مراقص أوملاهى؟! إن المرأة عندنا محجبة لا تظهر منها إصبع واحدة ، وهى إذ تسير تضع على وجهها حجاباً كثيفاً لا يبين ماخلفه ، فلا يكاد يبين لها طريقها إلا بشىء من التكلف غير يسير .

قالت : ولكن قل لى أراضيات نساؤكم عن هذا الحجاب وهل يأمركم به دينكم ؟

قال : أما أنهن راضيات فكل الرضا ، إن المرأة عندنا مدللة كأنها ملكة ومملكتها دارها ، ليست مسئولة إلا عن إدارة منزلها وتربية أطفالها وتهيئة وسائل الراحة للرجال ، أما الرجال فهم الذين

يسعون للرزق ويوفرون للمرأة كل ما تشتهى من متاع بحسب طاقة كل رجل وقدرته. والمرأة معترفة بقوة الرجل وسلطانه ، ملتجئة إلى حمايته ، معتزة بهذه الحماية، والعلاقة تقوم بين الرجل والمرأة على الحب والحنان من جانب المرأة ، وعلى الحدب والرعاية من جانب الرجل ، أما ديننا فقد أوصى بالمرأة خيراً ، وكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه — وهو قدوة المسلمين وإمامهم — من أكرم الناس معاملة للنساء وبراً بهن ، وكان يوصى أصحابه بزوجاتهم خيراً فيقول — رفقاًبالقوارير — وكان يقول صلى الله عليه وسلم : خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهله . وقد أوصى الله سبحانه وتعالى بهن خيراً فقال — : فعاشروهن باحسان أو فارقوهن باحسان — ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين . وأوصى بأن لايأخذ الرجل من امرأته شيئاً إن طلقها فقال — : وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً.؟ — وديننا يضع القوانين الحكيمة للرجل والمرأة فجعل الرجل قوّاماً على المرأة مفضلا عليها، وكلفه بالإنفاق عليها. وكلفها باطاعته ليجنبها السعى للرزق والكدح للحياة ، أما مسألة السفور والحجاب فى الإسلام فإنى أريد أن تعلمى أيتها العزيزة أننى لست عالماً دينيا ، وهذه مسألة اختلف عليها العلماء ، ولكن لى فيها رأياً لا أعرف أصوب منه ، وهو أن المرأة إن خشيت الفتنة فعليها أن تحتجب ، وإن لم تخشها وكانت مضطرة إلى السفور فلا بأس بذلك ، ولعل هذا

يفسر كثيراً من اختلاف أعلام المسلمين على هذه المسألة الشائكة فان فى أجزاء من بلادنا وفى البادية على الخصوص حيث لا يستغنى الرجل عن المرأة ومعاونتها فى الزراعة والتجارة تخرج المرأة سافرة وتقضى حوائجها بنفسها وتشارك الرجل أعمال تجارته وزراعته ولا يجد الناس أى غضاضة فى هذا بل يرونه طبيعياً ، أما فى المدن والحواضر فان المرأة محجبة حجاباً ثقيلا كما وصفت لك من قبل ، ولعل للعادات هنا تأثيراً فى الحكم أكبر من تأثير الدين . وإلا فلماذا يباح للبادية مالا يباح للحاضرة ، وللبدوية ما لا يباح للحضرية ؟ !

قالت : إنك تزيدنى بهذا عجباً يحملنى على الاستزادة من الحديث عن بلادك ودينك وقومك .

قال : فإنى تحت تصرفك فى هذا وغيره ، ولكن سؤالى الحائر ما زال ينتظر الجواب ياعزيزتى . وأمسك بيد هاثم قال : هل تقبليننى زوجاً ؟

قالت : فإنى أرجو أن تترك لى فرصة للتفكير والتدبر .

قال : إلى متى فإنى فنيت انتظاراً

قالت : فإنى أعدك بأن يكون جوابى قريباً ، ولعلك تعرف أن لوالدتى فى هذا الأمر شأناً غير شأنى ولكن قل لى بالله هل تفرض على هذا الحجاب الثقيل الذى تتحدث عنه إذا ما صرت لك زوجاً ؟ قال أما إن كنا هنا فلا . وأما إن ذهبنا إلى بلادى فنعم .

قالت : ولكنى لا أطيق هذا الحجاب الذى ما وضعته يوماً على وجهى .

قال : لست أول من يحاول الاعتياد على شيء لم يألفه ، فإن كثيرات من النساء يفدن إلى بلادنا . مع أزواجهن ، وكن فى بلادهن كما أنت الآن ولكنهن بحكم وضع البلاد وعاداتها يتخذن الحجاب ويحرصن عليه، حرصاً على كرامة أزواجهن ومراعاة لعادات البلاد التى ينزلنها واحتراماً لأخلاق أهلها بل إنى عرفت واحدة منهن تتفانى فى ذلك حتى تزيد عن نساء الحجاز أنفسهن .

قالت : فإن هذا هو مايسميه غوستاف لوبون — حمى الجماهير

قال : نعم هو شيء من ذلك يا كيتى العزيزة .

وكانت الشمس قد غربت وأظلم المساء وهما فى هذا الحديث فالتفتت الفتاة وقالت : لقد سحرنى حديثك اليوم حتى نسيت الزمن ، هيا بنا نعد فلعل والدتى كثيرة القلق لغيابنا .قال الفتى وقد نهض متأبطاً ذراعها هيا بنا . وقفلا عائدين .

— ١٧ —

يمكن القول إن هذا الحديث وما تلاه من أحاديث كان أساساً جديداً قامت عليه علاقة أسامة وكيتى فقد تكشف لها الفتى إنساناً جديداً غير الذى تعرفه من قبل ، ووافق هذا الاكتشاف هوًى من نفس الفتاة الحازمة الطموح، ومضى الربيع ، وحل الخريف وأيام الفتى والفتاة تسير هادئة هانئة وسفينة حبهما تجرى فى موج هادئ عذب النسمات ، والأحاديث بينهما تتصل وتنفصل لتلتقى عند نقطة واحدة هى محور ما يتطلبه الفتى دائماً، وما تسكت عنه الفتاة فى كثير من الأوقات .

وكانت أحاديث أسامة عن الوطن والدين أحب الأحاديث إلى نفس كيتى المتطلعة . فقد فتحت لها هذه الأحاديث أبواب عالم جديد ما كان يخطر لها على بال . هذا الدين السمح الذى ساوى بين الملوك والسوقة ، والذى قرب بين الغنى والفقير ، وألغى الفوارق بين الطبقات ، ثم هذه البلاد العجيبة التى تتحجب فيها المرأة وراء أسوار وحجب ثقال . كل هذا أثار من عجب الفتاة وإعجابها ما جعل هذه الأحاديث وأمثالها مادة لقاء الفتى والفتاة . ومما حفز الفتى إلى البحث عن الكتب المؤلفة عن الإسلام بالإنكليزية وأهمها كتب السيد إقبال والزعيم محمد على ، فكان كلما عثر بكتاب منها سارع إلى شرائه وأهداه إليها ، وهى بطبيعتها قارئة ممتازة فكانت تفرح بهذه الكتب كما لم تفرح بشىء من قبل خاصة وأنها لمؤلفين من جنسها ووطنها . وكانت هذه الكتب موضع دراسة الفتى والفتاة فى أوقات منتظمة فهى تقرأ الفصل أو الفصول حينما تأوى إلى غرفتها وتقابل الفتى فى اليوم التالى مستوضحة ما غمض عليها فهمه أو مناقشته لبعض الأمور التى تدعو إلى المناقشة . وكانا فى بعض الأحيان يقرآن الفصول معاً ، وكانت مهمة الفتاة تنحصر فى القراءة ، ومهمة الفتى فى الشرح والتفصيل ، ووجد الفتى فى مكتبة القرية التى تعرف إليها بواسطة كيتى كثيراً من كتب المراجع العربية فى الدين الإسلامى فاندفع إلى القراءة فيها تلبية لرغبات الفتاة وإشباعاً لأسئلتها التى لا تنتهى ،

وهكذا أصبح الفتى فى سبيل حبه فتى مميزاً راشداً ، وهكذا أصبحت العلاقة بين الفتاة والفتى سبيل خير وبركة لأنها إنما تقوم على الثقافة والعلم ، وما قامت علاقة أطهر ولا أنبل فى الوجود من علاقة تخدم ثقافة الفكر ، وتبصرة العقل ، وتهذيب الوجدان . وقد أفادت هذه العلاقة الفكرية كلا من الفتى والفتاة فقد تمكن هو من الإنكليزية التى أصبحا يدرسان ويتكلمان بها ، كما فتحت لهما آفاق المعرفة الواسعة فانطلقا يقرآن ويدرسان ويتذاكران ما قرآ ودرسا على الدوام ، ووحدت الثقافة المشتركة أفكارهما وقربت بين قلبيهما فأصبحا يشتركان فى أكثر من سبب أو غاية فى الحياة . ولم تكن أحاديث الحب بينهما أو مواقفه كثيرة أو متقاربة ، فقد كان للفتاة من الهيبة والجد ما جعل الفتى أكثر حذراً ، وأعظم حيطة ، وكان يطرق أحاديث الزواج فى فترات متباعدة كلما وجد الفرصة مهيئة ، والوقت ملائماً ، وكان ربما تطرق منها إلى حديث هواه ، وهكذا حتى بعد أن تكاشفا بالحب وتحدثا فى أمر الزواج لم تتعد العلاقة بينهما حدود الصداقة البريئة والتعاون الفكرى الخالص ، وكان هذا الحرمان يزيد فى وقدة الحب فى قلب الفتى ، ولكن عفاف الفتاة وأدبها وكثرة لقائهما يلطف من حدة هذا الحرمان وينزل على قلب الفتى بشئ من برد الرضا والسلام .

وكان أسامة يشعر أن كيتى بدأت تحب الديانة الإسلامية وتفهمها ، ولكنه لم يكن يطلب إليها قط أن تخلع ديانتها لتلتحق

بلدينه ، وإن كان يتمنى أن يتم ذلك من أعماق قلبه ، فهو يعرف سلفاً ما سيواجهه من مشاكل وانتقادات إن عاد إلى بلاده فعلموا منه أنه تزوج مسيحية ، ولكنه لم يحفل بشيء من هذا فهو لا يفكر فى العودة إلى وطنه ، وكيف يعود إلى بلاده وهو موزع القلب مسلوب الفؤاد ، ولكن الحوادث لا تسير دائماً وفق ما يشتهى الناس والمحبون على وجه خاص، فما هى إلا أسابيع حتى بدأت نذر الحرب العالمية تملأ أفق العالم ، وحتى أصبحت إذاعات الراديو ، وأنهار الصحف تسيل بأخبار الحرب ونذر الحرب . وبدأت رسائل الفتى تصله من أهله وكلها تحثه على العودة ، وكان لا يلقى إلى كل هذا بالا فى البداية ، ولكن رسالة برقية وردته من عمه ينبئه فيها بوفاة أبيه ويدعوه فيها إلى سرعة العودة، كانت هى الحد الفاصل فى هذا الأمر، وفى اليوم التالى وصل رفيق الفتى من بومباى ليعود به إليها حيث يركب البحر ليعود إلى بلاده .

قال الصديق بعد أن عزّى الفتى عزاء جميلا ، إن واجبك الآن أن تعود إلى وطنك ولقد لقيت الطبيب فأكد لى أنك قد شفيت تماماً ، وإنى أنصح لك شخصياً بالعودة المبكرة فان الحرب موشكة أن تقع، وستنقطع هنا عن وطنك وأهلك، وإن والدتك الآن أشد ما تكون حاجة إليك فرتب أمورك لنرحل من هنا فى بكرة الغد، وما زال به حتى أقنعه بالرحيل .

هنالك لم يكن بد من أن يصل الفتى والفتاة إلى اتفاق على مسألة الزواج ، فانطلق الفتى إلى السوق فاشترى خاتماً من الذهب نقش عليه اسم الفتاة وتاريخ اليوم ، واشترى إلى جانب ذلك ثوبين من أجمل الثياب أحدهما للفتاة والآخر لوالدتها وذهب بحمله الثمين إلى الدار فوجد كيتى بالشرفة وما ان أقبل حتى نظرت إلى ما يحمله وقالت ضاحكة :

أى شيء هذا الذى تحمله معك اليوم يا صاحبى ؟ إنه ليس كتاباً على كل حال ؟

قال الفتى — وفى قلبه حرقة ، وفى نبراته ألم : كلا يا عزيزتى ليس هو كتاباً ، ولكنه هدية صغيرة تذكرين بها صديقك العربى الذى سيعود إلى بلاده بعد ساعات ؟

فدهشت كيتى ولم تمد يدها إلى الهدية ونظرت إلى أسامة فى دهشة يشوبها الألم ، ومرت لحظات كان كلاهما فيها صامتاً . ثم أقبلت والدة كيتى تحمل إليهما ابريق الشاى وكوباته ، وكأنما أدركت أن فى الجو شيئاً فالتفتت إليهما وقالت : ما لكما اليوم صامتين على غير عادة ؟

قالت كيتى : لاشيء يا أماه سوى أن أسامه يقول إنه سيرحل عنا قريباً . فانثنت الأم مستفسرة ولماذا ؟ ألم تعجبه صحبتنا ؟

قال أسامة بعد أن أطلق آهة حرى : كلا يا سيدتى . والله ما وددت بصحبتكما صحبة أخرى ، ولو خيرت لاخترت أن أقيم

جواركما إلى آخر الدهر ، ولكن لى والدة تطلب رؤيتى وقد غبت عنها سنوات ثلاث ،وأنت تعرفين شعور الأمهات فأنت أم قبل كل شيء، وقد تلقيت اليوم برقية بوفاة أبي فأصبح من واجبي أن أعود .

قالت الأم : إنى والله يا بنى لآسفة لفراقك وانى لأعرف أن أسف ابنتى أكبر من أسفى فانك قد حللت من نفسها مكاناً لم يحله أحد ، وأنت جدير بهذا ، ولكن أملك يا بنى هى الآن أحوج ما تكون إليك فاذهب إليها وليباركك الله .

وخرجت الأم لبعض شأنها وبدا كأنما أفاقت كيتى من غشيتها فنظرت إلى أسامة نظرة كلها حب وجزع ثم قالت : ومتى ؟

قال : غداً عند الفجر .

قالت — : هكذا سريعاً ! !

قال — : نعم . هكذا سريعاً وبكل أسف ياكيتى العزيزة ! وكان ألمه ظاهراً ، بل كان كل ما فيه ينبىء عن آلامه العظيمة التى لا حد لها ، وجهه المصفر ، ونبراته المرتجفة ، وتنهداته الحرّى .

قالت — : ومتى تعود ؟

قال — : هذا ما لا أعلمه ياكيتى . ذلك شىء فى علم الله ، إنه اليوم غيب ، ولكنى أرجو.. أرجو أن أعود قريباً وقريباً جداً لو كان هذا فى الإمكان .

واستبشرت كيتى بهذا فقالت : أحقاً ما تقول ؟ قل لى أيحدثك قلبك بأنك عائد يوماً ما . حتى نتلاقى مرة أخرى ؟

قال : هذا ما لابد وأن يكون يا عزيزتى فان فى هذا حياتى ، حياتى بكل ما فيها من مسرات وأشواق ، وأمان وهناءات . ولكن ألا تودين أن ترى هديتى لك الآن ، وأخرج الثوب الحريرى الجميل ووضعه أمامها فتأملته فى إعجاب وقالت : انه جميل ، ولكنى كنت أود أن تبقى هنا ولا يكون لى هذا الثوب ، قال لها : شكراً يا عزيزتى ، وكنت أتمنى أنا أيضاً أن أكون هنا وأن أحضر لك فى كل يوم ثوباً كهذا أو أجمل منه ، ثم أخرج ثوب أمها وقال : هذا لوالدتك يا كيتى فالتمسيها أن تقبله تذكاراً منى .

ثم أخرج خاتم الخطبة وأمسك بيدها ونظر إلى عينيها وقال : وهذا يا كيتى الحبيبة هل تقبلينه ؟ إن هذا هو العزاء الوحيد لى فى هذا الفراق . فنظرت إلى الخاتم ملياً ثم أخذته فى يديها فأمسك بيدها ووضع الخاتم فى إصبعها فابتسمت فقبّلها شاكراً وقال : انك لا تعرفين أى سعادة منحتها لى اليوم ، سأسافر وكلى أمل وعزيمة ، وسأعود وكلى شوق وآمال .

...

قالت : وسأنتظرك إلى أن تعود ... إلى آخر العمر يا حبيبى .

وهكذا تمت الخطبة فى ليلة الوداع .

— ١٨ —

مضت الساعات كأنها دقائق ، وحمّ الفراق ، واعتنق الخطيبان الحبيبان ، وكانت لحظة شهد فيها الناس فتى عربياً يبكى . وفتاة هندية يغمى عليها من هول الفراق ، ولم يكن هذا الفتى إلا صاحبنا أسامة ولم تكن هذه الفتاة إلا صاحبته كيتى ، وصفرت القاطرة

منذرة بالمسير ، وأفاقت كيتى من إغمائها فهبت واقفة تلوح بمنديلها للفتى الواقف بالنافذة يطل عليها بعينين مخضلتين بالدموع . وقبل قيام القاطرة بقليل أمسك أسامة بيدى كيتى فوضعت فى يديه علبة صغيرة قائلة له احفظها تذكاراً لى ، ولا تنسنى ... وتحرك القطار وابتعدت كيتى وابتعدت القاطرة بالفتى ماضية به إلى صميم المجهول ، إلى حيث لاتعلم كيتى ، إلى بلاد الصحراء والخيام والنساء المحجّبات ، وفتح أسامة العلبة الصغيرة فإذا فيها خاتم من الذهب وقد نقش عليه اسمه واسمها ، وتاريخ أول لقاء لهما فى المستشفى ، ودقق الفتى النظر فى الفص الذى يزين الخاتم فاذا به على شكل تمثال بوذا ، حيث رأى كيتى لأول مرة تقرأ الإنجيل ، وإلى جانب الخاتم وجد منديلا من الحرير الهندى ملفوفاً بعناية ففتحه وإذا هو يضم خصلة عطرة من شعرها الفاحم الجميل ، وقبل الخصلة السوداء ولفها بعناية فى منديلها الحريرى ووضعها داخل العلبة ، أما الخاتم فقد وضعه فى إصبعه ... والقاطرة تسير مبتعدة عن كيتى ، وعن القرية السحرية التى قضى فيها ما يقرب من ثلاثة أعوام .

— ١٩ —

وأخيراً آن للمسافر أن يلقى عصى الترحال ، وآن للغريب أن يعود إلى وطنه ، وذات صباح قدمت الباخرة جهانكير إلى جدة ، وعلى ظهرها فتى يلبس خليطاً من الملابس العربية والهندية ، كوفية حجازية وشالا من صنع كشمير ، ومعطفاً هندى الطراز

وثوباً قصيراً ، كأنه قميص طويل ، وسروالا من البفتة إلا أنه كالبنطلون ، وألقت الباخرة مرساها ، وقدم عمُّ أسامة وصحبه فرحين مستبشرين ونزل الفتى إلى الزورق البخارى وسط مظاهر الترحيب والشوق من أهله الطيبين ، وصحبه الأوفياء . ووجد على الرصيف مظاهرة أخرى من معارفه وذوى قرباه وبقية الصحب والخلان ، وسار الفتى حتى وصل إلى البيت فوجد والدته ، وقد استحالت عجوزاً ؟ لقد غيّرها الفراق . فاستحال سواد شعرها إلى بياض ، ونحل عودها وذوت وسارع إليها الكبر كأنما مضى على بعده عنها عشرون حولا ، لا ثلاثة أعوام ، ومضت أيام الفتى الأولى رتيبة فارغة ، يلقى بها الناس أو يلقاه الناس مرحبين ، مستفهمين عن صحته وأحواله إلى آخر ما هنالك ، ويلقاهم مجاملا ، ما أطلق المجاملة محدثاً ما هفت نفسه إلى الحديث ، وكان كل شيء حوله يذكره بما خلف وراءه ، بكيتى العزيزة ، وبالقرية الساحرة ، والحياة السعيدة ، التى يعتبرها تاريخه الحى حتى الآن .

ووجد الفتى وطنه كما خلفه أول مرة ، لم يطرأ عليه تغيير ، ولم يفكر أحد فى إدخال أى اصلاح فيه ، وزاد على هذا أنه استمع إلى شكاوى الناس وخوفهم من أن تحول هذه الحرب المنذرة أو تمنع عنهم ما يحمله إليهم البحر من طعام ولباس ، ومن كل ضرورى وكمالى ، فقد كانت الحرب العالمية على الأبواب ، وزاده ما رأى وما سمع أسى وهماً ، وفكر حتى متى نعيش على هذا الحال ولم يفكر الناس فى الرقى ببلادهم وحياتهم ليسايروا ركب الحضارة

والعمران ، ولكنه عاد أكثر تفكيراً ، وأقل كلاماً ، فلم يكن يتحدث بهذا إلا إلى عقلاء قومه ، وخاصة صحبه ، فكان يجد من بعضهم استماعاً لما يقول ، وتأميناً على صحة كلامه ، ولكنه قلما وجد من يفكر فى الطرق العملية التى تأخذ بيد الأمة فتنهضها ، والتى تسير بالحياة الاجتماعية لبلاده فى الطريق القويم . وكان الشبان يعتذرون بضيق ذات اليد ، وقلة الحيلة ، فان من لا مال له ، لا حيلة له ، وكان الشيوخ والكهول يحملون الشباب مسئولية العمل ، أما العاملون فقد كانوا لا ينطقون ... ووجد أسامة إجماعاً من الكل بوجوب أن تعمل الحكومة كل شيء ، كأنما هم أشباح ليس لها وجود ...

وانطوى الفتى على نفسه مفكراً فى هموم قلبه ، وهموم بلاده ، ووجد في القراءة بعض السلوى فكان يقضى أغلب أوقات فراغه فيها ، ولكن هذا أورثه أسى وهماً ، وانطواء لا يتفق مع حيويته الدافقة ، وطبيعته المرحة قبل أن يرحل إلى الهند ، ولاحظت والدة الفتى ما ينطوى عليه فتاها من هموم لا تعرف مصدرها ولا أسبابها فأخذت تسرى عنه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، ولكن أنى لهموم قلبه أن تنصرف ، وهو لا يفتح عينيه إلا على ذكرى كيتى ولا يغمضها إلا عليها . وكان يعيش على ما يصل إليه من رسائلها ، وما يبعث إليها من رسائل ، وكثيراً ما كتب الرسائل إليها ، وقليلا ما تلقى منها ، فقد كانت الحرب قد أعلنت ومضت الشهور وهو لم يتلق منها سوى رسالتين لا يخرج ما فيهما عن أشواقها ،

وشعورها بالفراغ الكبير الذى خلفه بعده عنها ، وكانت هذه الرسائل كالبلسم لقلبه الجريح ، وكانت تدعوه دائماً لأن يعود بعد أن رأى والدته فانها فى انتظاره ولكن أنى له أن يعود ، وهذا البحر قد أقفل أبوابه ، وهذه والدته الحزينة ، ولا أمل لها ولا سند سواه .
ومضت شهور أخرى فانقطعت رسائلها تماماً حتى يئس منها ، وازداد الفتى انطواءاً وسكوناً ، وازدادت همومه وآلامه فأشارت عليه والدته بالرحلة إلى الطائف ، وكان الصيف قد أطل بشواظه ولهبه فرحل الفتى إليها ، وفى نفسه وقلبه آلام وهموم .

– ٢١ –

لم يكن الفتى غريباً عن الطائف ، فقد كان يعرفها قبل سفره إلى الهند ، ولكنه فى هذه المرة نظر إليها بعين جديدة، فقد كانت الطائف وما حولها من القرى تزينها الحدائق الناضرة، والطيور المغردة ، والأزهار المتفتحة ، وأثمار الشجر دانية القطوف ، تذكره بالريف الهندى الساحر ، وبقرية جوكولا التى قضى فيها أجمل أيام عمره وأحلاها ، وألذ حقبة فى شبابه وأغلاها ، وقد سعد الفتى بهذه الرحلة التى لم تقتصر على الطائف وحدها ، وأخذ ينظم وصحبه رحلات كثيرة إلى قرى الطائف وما حولها ، وكانت أهم الرحلات وألذها رحلته إلى الشفا فى ديار بنى سفيان ، فقد أتيح للفتى أن يشهد من مناظر الطبيعة الجميلة ، وبساطة البادية وصفاء الفطرة ما أدخل على قلبه الكثير من السرور بما رأى ، والغبطة بما شهد

وسمع ،وكان أعجب ما عجب له فى رحلته تلك هو اللغة الصحيحة السليمة التى ينطق بها سكان هاتيك المناطق الجبلية فقد خيل إليه أنه طوى القرون إلى أيام العروبة الأولى فى صدر الإسلام فهو لم يسمع إلا كلاماً فصيحاً ، لم تخالطه اللهجات الأعجمية ، ولم يتطرق إليه الخلل والدخيل من الكلام ، فهذا طفل لايبلغ الثالثة يتكلم العربية كما يتكلمها الأعراب الأقحاح – وما هو إلا اعرابى قح – وكان أسامة وصحبه يديرون الحاكى بأناشيد عبد الوهاب ، وأغنيات أم كلثوم ، فسأل أحدهم الطفل العربى ، وكان ابن صاحب المنزل الذى ينزلونه : ماذا يقول هذا ؟ وأشار إلى الفونوغراف. فقال الطفل – إنه يعالم – وسأل أحد الصحب ، وقد وصلوا إلى قرية الفرع – وأطلوا على وادى تهامة من قمة عالية هناك عن أحد أهل القرية وكان يعرفه من قبل فقال المجيب : ذهب يحتش فتردى . وأمثال ذلك كثير ، وقد أتاحت هذه الرحلة لأسامه الكثير من التفكير فقد رأى البادية هنا لأول مرة على حقيقتها ، واتصل بالبدو اتصالا قائماً على الرغبة فى الدرس والفهم فأدرك أن هؤلاء هم أمل البلاد إذا ما أحسن تعليمهم ، وتثقيفهم ، وإذا هيأ الله لهم من يأخذ بأيديهم إلى نور الحضارة فهم خليقون إذاً أن يعيدوا لهذه البلاد تاريخها المجيد الظافر ، يوم كان العرب خير أمة أخرجت للناس ، ويوم دانت لهم الدنيا بهداية سيد الكون محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيادة الإسلام وهديه ، وتعاليمه السمحة الكريمة ، وتمنى لو أقيمت فى كل قرية من قرى المملكة مدرسة أو حتى بناء بسيط ، وجعل

فيها معلم يعلم أبناء القرية مبادئ القراءة والكتابة ، وقراءة القرآن وما إليه ، ولو أقيمت فى كل مدينة كبيرة تتصل بالبادية كالطائف والمدينة وينبع مدارس كبيرة لتعليم أبناء البادية الذين يكونون قد تلقنوا فى مدارس القرى مبادئ التعليم ، وأن يمهد لهم فى هذه المدارس سبيل المأوى والمسكن فتكون هذه المدارس على غرار المدارس الداخلية فى مصر وغيرها ، وأن يبعث بالنوابغ منهم بعد إتمام دراساتهم الثانوية إلى الجامعات فى البلاد العربية والأفرنجية ليتلقوا دراساتهم العالية هناك ، ومن ثم يعودون إلى بلادهم وقد أخذوا من العلم حظاً عظيما ، هناك أى نهضة يستطيع هؤلاء البدو النوابغ أن يقيموا أركانها فى هذه البادية ، وأى كسب اجتماعى واقتصادى تكسبه بادية المملكة حينما نرى البدوى فيها وقد تعلم فأصبح فى كل قرية الطبيب ، والمهندس الزراعى ، وصاحب الفندق المهذب ؛ والمزارع النشيط ، والمدرس الذى يضطلع بأداء الرسالة العلمية لتنوير قومه والأخذ بهم فى أسباب الحضارة والتمدين . وكان أسامة على مثل اليقين بأن هؤلاء العرب الأذكياء سيقبلون على العلم بنفوس ظامئة ، وقلوب متعطشة فيفيدون منـه أعظم فائدة ، وفكر فى أن يبدأ هو بالفكرة فيتخذ من إحدى القرى المتوسطة الموقع مكاناً يبنى فيه بناءاً بسيطاً من اللبن بمعونة أهل القرية ويجعل من نفسه المعلم الأول لأهلها ، فاذا ما أتيح له أن يعلم عشرة فقط من أبناء القرية بعث بـكل واحد منهم إلى قرية من القرى ، ووضع لهم نفس الخطة ليبعثوا بتلاميذهم إلى القرى الأخرى ، وهكذا لا تمضى سنون

قليلة إلا وقد شملت القرى جميعها نهضة تعليمية شاملة ، وقال لنفسه وهو يحاورها : أى خير يحييه الله على يديك يا أسامة إن وفقت إلى هذا العمل العظيم ، وأى عصا سحرية تضرب بها هذه البادية فتنهض من كبوتها وتفتح عينيها على الحياة الكريمة الصحيحة؟ وأى سعادة تغمر القلب والنفس أكبر من أن ترى أن الله قد جعل على يديك إسعاد أمـة ، وإنهاض شعب ؟ وتطرق بأفكاره إلى زعيم روحى عظيم من أهل وطنه قام بمثل هذا العمل ولكن فى الحاضرة فأراد الله أن ينبت بذور العلم وثمراته على يديه فى العصر الحديث ، ذلك هو الزعيم الروحى الكبير محمد على زينل رضا مؤسس مدارس الفلاح ، وقد كان أسامة يعتبره زعيما له ورائداً روحياً ، ففكر كم سيكون سرور الزعيم حينما يرى أحد أبناء وطنه وقد سار على نهجه وسلك السبيل الذى اختار ، وتمكنت الفكرة من نفسه ، وأسر بها إلى بعض صحبه فوجد تحبيذاً وتشجيعاً حينما كانوا يظنون الأمر مجرد فكرة ، فلما أخبرهم أنه يفكر فى تنفيذ الأمر فعلا لقى منهم التثبيط ! ! ولكنه كان قد حزم أمره وأخذ يعـد العدة لذلك ، وفكر فى أن المسألة لا تحتاج إلا إلى كثير من العزيمة وقليل من المال ، أما العزيمة فهى موجودة ، وأما المال فهو خليق أن يدبره ما أمكن التدبير ، وفكر فى أمه وتمنى أن لو رضيت بالرحيل معه إلى هذه القرية من قرى الطائف أو تلك ، إذاً لتذلل له ما كان عسيراً ، ولكنه كان يعرف أن أمه لا تستطيع أن تفارق جدة ، وما ألفت فيها من حياة لينة متمدنة إلى خشونة هذه البادية وقسوتها ،

وإلى الغرفة الضيقة التى ستكون سكناً له ولها ، بعد المنزل الفسيح ذى الأربع الطبقات ، وإلى الأثاث الريفى البسيط بعد الأرائك الوثيرة ، والفرش الغالية ، وإلى البدويات الجاهلات الساذجات ، بعد الحضريات الناعمات المترفات ، وفكر لو أن كيتى معى ؟ وأطلقها آهة من صميم قلبه ، إذاً لرحبت بالفكرة ولخلقت من الكوخ البسيط عشاً ساحراً ، ومن هذه الأرض الطيبة روضة من الجنات...

ولكن أين هى كيتى ؟ إن الريف هنا كالريف هناك ، ولكن أين روح الريف ، أين الحبيب والأليف ؟ ! وقال أسامة لنفسه لو أن والدتى على حظ من العلم لرأت فى هذه الأفكار التى أحتضنها اليوم فرصة من فرص العمر ، ولأقبلت لتكون سيدة القرية ومعلمتها ، ولعلمت النساء ، كما أعلم أنا الأطفال والرجال . وآذنت الرحلة بالانتهاء ، وعاد أسامة وصحبه إلى الطائف ، وهو مصمم على تنفيذ فكرته بعد أن يعود إلى جدة ويبحث الأمر مع والدته وقرر أن يبدأ العمل فى الصيف القادم ، وعليه أن يدبر المال اللازم للبدء فى المشروع خلال الشهور الباقية إلى مطلع الصيف الجديد . وفكر فى أن يقوم بعد عودته إلى جدة بإعطاء دروس خصوصية فى الانكليزية للراغبين ، وأن يضطلع بكتابة الرسائل التجارية لبعض التجار ، وقدر أن هذا كله سيفيده بعض المال ، إلى جانب ما سيقتصده من مرتبه ، وقرر أن يستغنى عن كل ما يمكن الاستغناء عنه لتوفيره للمشروع ، وعليه أن يحضر معه عدداً من المصاحف ، والدفاتر والكتب المدرسية البسيطة وأدوات المدرسة الصغيرة ، وأن يشرع مسلحاً بالعزم والإيمان .

نحن نفكر ونقدر ، والأيام تمضى بنا إلى حيث يشاء القدر النافذ ، فتدفعنا إلى السبيل الذى ترسمه لنا الأقدار ، لا إلى السبيل الذى نرسمه نحن لأنفسنا ، والحكيم من استطاع تقبل أحكام القضاء والقدر بالرضى والإيمان ، فأفاد من الحادثات وكيف نفسه معها ، وأسامة لا يعدو أن يكون ذرة فى بحر هذا الوجود الصاخب ، وفكرة فى موجه المتدفق ، وهكذا ترسم له الأقدار كما سترى سبيلا غير السبيل الذى رسمه لنفسه فى قرية الفرع من أعالى الشفا ، وهو يطل على أودية تهامة البعيدة الغور .

كان أسامة وصحبه يقضون يومهم فى بستان من بساتين المثناة يلهون لهو أهل الحجاز ، يقضون اليوم فى لعب الورق ، والحديث ، فاذا أخذوا حظهم من هـذا وذاك اجتمعوا إلى واحد منهم فأخذ يغنيهم أغانى مصر وينشدهم أناشيد الحجاز ، أو يطربهم طرب أهل صنعاء وعدن . وقضى الصحب يومهم فى لهو ولعب حتى إذا كان الأصيل انطلقوا جماعات إلى البساتين المجاورة وإلى مسيل وادى وج ، وإلى تسلق الجبال المشرفة على الوادى كلٌ حيث شاء ، وحيثما سولت له نفسه . وبينما أسامة وأحد خاصته يسيران فى دروب المثناة الضيقة بين البيوت المبنية بالطوب الذهبى وإذا نافذة تفتح فى إحدى الدور بصوت مسموع فرفع أسامة وصاحبه رأسيهما وإذا فتاة كأنها فلقة قمر ، وأحست الفتاة بالشابين فجرت إلى داخل الدار ، وسار صديق أسامة ولكن أسامة وقف ، كأنما سمرت قدماه.

لقد كانت هذه الفتاة تشبه كيتى شبهاً عجيباً ، وإذا كانت الأسطورة القائلة بالتناسخ فيها شىء من الحقيقة ، فهى اليوم أكبر الحقائق وأعظمها ، وطال وقوف أسامة فتنبه صاحبه إلى شذوذ الموقف فأخذ بيده وسارا مبتعدين ، ولكن أسامة لم يهـدأ له بال ، لقد وقعت هذه الفتاة من نفسه موقعاً عظيما ، وهو يريد أن يعرف عنها كل شىء ، وسأل أسامة صاحبه عن الدار وأهلها فعرف أنها لرجل من الأتراك المقيمين بمكة وقد حضر للاصطياف بأهله واستأجر هذه الدار من ملاكها ، وعرف أن الرجل متوسط الحال وإلا لما لجأ إلى السكن فى هذه الدار البسيطة ... ولا نطيل القول ، فان الفتاة قد سلبت لب أسامة ، وأهاجت شجونه ، فأخذ يعنى بأمرها حتى استطاع أن يعرف عنها كل شىء ، هى وحيدة أبيها ، أما أمها فقد طلقت من زمن وبنت برجل آخر ، وأبوها رجل متوسط الحال ، إلا أنه يحب المال ويقدر أهله ، وقد خطبها كثيرة من أهل طبقته فلم يزوجها ، لأنه إنما يريد لها زوجاً غنياً . وقال أسامة : وماذا لو خطبتها ألا يزوجنيها ؟ وقال له صاحبه : من يدرى فلنجرب حظنا معه فلعل ما لوجهك من رواء ، وما لإسم بيتك من رنين أن يغرى الرجل بالقبول . وتضاحكا . . . وكان صاحب أسامة يعرف من أمره ما استتر ، وكان يعرف أن حبه لفتاة فى مجاهل الهند ووفائه لها ليس إلا خرافة كبيرة ، وقد ضربت هذه الحرب بينهما بأسوار وحجب من النار والحديد ، وخير له أن يتسلى ويتزوج بمن رآها شبيهة بتلك وهى خليقة أن تسعده وتنسيه.

ولم يزل بأسامة حتى وافق مبدئياً على الفكرة ، فذهب صاحب أسامة ومعه رجلان من كبار أهل مكة يسبرون غور الرجل إن كان يوافق على تزويج ابنته بلقيس ، لأسامة بن الشيخ أحمد الزاهر من أعيان جدة وذوى الأملاك فيها ، فأبدى الرجل شيئاً من القبول ولكنه اشترط لإبنته مهراً غالياً ، فوافق المندوبون ، ورجعوا إلى أسامة يزفون له البشرى . وكان أسامة يملك حصصاً فى منزل كبير وبعض الدكاكين فى جدة مما تركه أبوه فرأى أن يبيعها ويبنى بالفتاة ويستعين بما بقى فى تنفيذ مشروعه فى تعليم البادية . واتفق الطرفان على إقامة العقد فى مكة بعد عيد الفطر وقرأوا الفاتحة على ذلك ، وتحدد المهر بمائة جنيه من الذهب تدفع فى مكة حين العقد، أما الدخول فيكون فى محرم بعد انفضاض الحجيج ؛ وهكذا فرط أسامة فى عهده لكيتى وتناساها .

– ٢٣ –

لابد لنا وأن نذكر نادرة لطيفة وقعت لأسامة قبل رحيله من الطائف ، فقد ذهب إلى أحد الخياطين من مهاجرى بخارى لشراء حذاء لوالدته كانت قد أوصته به ، فهاله ما رأى من كثرة هؤلاء المهاجرين ونشاطهم ، وكان قد سمع الكثير عن ذلك ، ولكنه رأى الآن أكثر مما سمع وأدرك ببصيرته النفاذة أن هؤلاء القوم يسعون للسيطرة على مقدرات البلاد الاقتصادية إن لم يكبح جماحهم . ولا نطيل القول فقد انتقى الحذاء من بين أحذية كثيرة وأخذ يساوم صاحب المصنع واسمه «مخصوم عبد الحكيم السمرقندى»

فى الثمن فطلب الرجل ثمناً مرتفعاً وأصر عليه . فقال أسامة ضاحكاً:
إنكم تحضرون إلى بلادنا وتزاحموننا أرزاقنا ثم تتحكمون فينا ؟!
فقال مخصوم فى لهجة ساخرة متكبرة :

أتعرف أيها الفتى اننا نصنع لكم ما لا تستطيعون صنعه لأنفسكم ؟!

قال أسامة : فلو أن لى من الأمر شيئاً لما أبقيت فى هذا البلد أحداً منكم .

قال مخصوم : إذاً فستسيرون فى الشوارع بلا سراويل ،لأنكم لاتجدون من يخيط لكم سراويلكم . وغضب أسامة ورمى بالحذاء فى وجه الرجل ، وكادا أن يتماسكا لولا أن تدخل بينهما الناس . وانطلق أسامة غاضباً يرغى ويزبد، وكان جماعة من تجار مكة والطائف فى حانوت كبير يراقبون الحادث فلما أقبل أسامة مقترباً منهم دعوه وأفسحوا له مكاناً فى الدكان ، وأخذوا يتحدثون إليه فى الموضوع . قال كبير القوم وكان رجلا تبدو عليه المهابة :

إن ما رأيته اليوم يا بنى ليس إلا جزءاً يسيراً مما نراه كل يوم، وكن على يقين أن الرجل— يقصد البخارى — خشى مغبة تماديه معك فان فى مظهرك وسمتك ونبل محتدك ما أخافه ، وفى جرأتك عليه ما زاده خوفاً ، ويبدو لى إن كان ظنى صادقاً أنك قريب عهد بهذه البلاد وإن كنت من أهلها .

قال أسامة : نعم فان لى عن الطائف خمس سنين ، وقد كنت بالهند عامين ، وأنا أسامة الزاهر من أهل جدة .

قال الرجل : فاننا نعرف أهلك وأنت من بيت كريم ، والطيب لا يلد إلا طيباً ، إنى أعرف هذه الكرامة فى جدك يا بنى وقد كنت أنا شاباً مثلك وهو شيخ مثلى فلا عجب أن تكون أنت مثله وأنت من صلبه .

قال أسامة : ولكنى لم أر قبل سنوات عدة ما رأيته اليوم من تحكم هؤلاء الناس وتماديهم وأخذهم بمرافق البلاد بين أيديهم ، وحرمان أهلها ومضايقتهم .

قال أحد القوم :

إن الداء قديم ولكنه لم يظهر على حقيقته وهوله إلا فى هذه الأيام التى أعلنت فيها الحرب وامتنع الوارد من الخارج ، فقد رأى هؤلاء القوم أن هذه هى فرصتهم الذهبية فتكتلوا ، وأخذوا يؤلفون من بينهم شركات يحتكرون بها بعض الأصناف من السوق ، فاذا رأوا الدقيق مثلا قليلا . بادروا إلى شرائه واحتكاره حتى يشعر الجمهور بفقدانه فيلجأ إليهم فيتحكمون فى أسعاره ويجنون من وراء ذلك الربح العظيم مستغلين حاجة الناس إلى العيش ، وهكذا .

فأبدى أسامة عجبه من هذا ولكن رجلا من الجماعة انطلق يقول :

والأغرب من هذا أنهم الآن يتكتلون بشكل مخيف ، فهم يختارون أحياء خاصة لسكناهم ويحاولون أن يمتلكوها تملكاً ؛ لقد اغتنموا فرصة إسماح الحكومة بأراضى اليمانية فى الطائف فأخذوا شوارع خاصة بهم ، فأنت الآن إذ تجول فى أقصى اليمانية

تجد بعض الشوارع وكأنها خاصة بأهل بخارى فقط ، وهم يحاولون مثل هذه المحاولة فى المسفلة فى مكة ، ولعل استئجار أحدهم للشارع الجديد الذى بنته مديرية الأوقاف فى مكة يفسر لنا هذه النزعة إلى التكتل فيهم تفسيراً قوياً ، فان أحد ثراتهم استأجر من مديرية الأوقاف هذا الشارع الجديد بما يحويه من حوانيت كثيرة ، وامتنع عن تأجير أى حانوت منها إلا لبخارى من بنى جلدته . هناك هاج الناس لما رأوا وذهبوا إلى إدارة الأوقاف محتجين ، وكان مديرها رجلا حازماً فطناً فما كان منه إلا أن استدعى الرجل وأعاد إليه نقوده وأمر بتأجير الحوانيت فرادى للناس كافة حتى لا تكون موضع استغلال فظيع كهذا ، وألقى على البخارى درساً لا ينساه .

قال أسامة : ولكنى أريد أن أعرف لماذا لا نحذو نحن حذو هؤلاء فى نشاطهم ودأبهم ، إنهم من المؤكد لم يكونوا هذه الأموال إلا بالنشاط والدأب ، والكدح والجد ، وإلا لما أتيح لهم أن يملكوا البيوت ويستأجروا شوارع كاملة ويحتكروا ما يريدون احتكاره من طعام الناس ولباسهم ، فأين تجار البلاد ، وذوو الرأى فيها ، وأين نشاط العاملين وجدهم وثمرات أعمالهم ؟

قال أحد التجار وهو رجل بادى الذكاء وكان صامتاً حتى الآن :

إن هؤلاء القوم يا أخى يحاربوننا بسلاح لا نقدر عليه ، إنى أحدثك كيف يتكون هؤلاء الناس وكيف يصبحون ثراة بعد حين .

يفد الوافد منهم من بلاده إلى مكة مثلا فيختار لنفسه صناعة من الصناعات التى يحذقها ، وهى إما الطهى ، أو صناعة الجلود ،

أو الخياطة ، أو الزراعة ، فيستأجر لنفسه حانوتاً صغيراً يتخذ منه متجراً ومسكناً ، ولعل أحد القوم يعطى للآخر نصف متجره ، فيطهى الطعام ويبيعه ، ويقتات بما لا يكلفه نفقة من بقايا طعامه ، وهو كل شيء فى عمله يساعده ولده إن كان له ولد أو أولاد ، فيتوفر لديه المال الذى يصرفه المواطن فى أسباب الحياة الضرورية والتكمل ، وهكذا نجد أن هذا الطارئ قد أصبح بعد سنوات معدودات قوة مالية فاتخذ حانوته فى الشوارع الرئيسية ، ووسع من أعماله فأصبح عماله كثيرين بعد أن كان هو التاجر والعامل ، وأصبح ذا ثروة تتيح له التحكم فى رقاب الناس ، واستغلال ضروراتهم ، بينما لا تتطور حياته إلا تطوراً بسيطاً فهو يبدأ بالاستحواذ على قطعة أرض فى الضواحى يقيم عليها أولا بيتاً من الخشب أو الصفيح فاذا كثر ماله بنى البيت بالأحجار ، وهو نفسه البناء والنجار ، يقوم هو وأسرته ببناء البيت وتأثيثه ، وهكذا حتى إذا أثرى لا ينتفع المواطن بفضل ثرائه ، فنحن لا نستطيع أن نجارى هؤلاء الناس ما دامت حياتنا الاجتماعية تتطلب منا مظاهر خاصة تكلفنا نفقات طائلة ، وما دمنا نعطى كل ذى حق حقه فى حياتنا ومعاشنا .

قال أسامة : فان من واجب الحكومة أن تضع من النظم ما تحمى به المواطن المقيم ، من الغريب الطارئ وإلا فإن اليوم الذى لا نجد فيه فى المدن الكبيرة مقاماً سيكون قريباً ، وانى لأخشى أن يصبح المواطنون غرباء فيلجأون إلى منى وعرفات كما تلجأ إليها البقية الباقية من قريش اليوم .

فأمن القوم على كلامه ، واستأذن أسامة وانصرف وهو يفكر فيما شهد وما سمع من حوادث وأحاديث ...

- ٢٤ -

كان سرور والدة أسامة بعودة ابنها عظيما ، وقد ضاعف هذا السرور ما أسره إليها من حديث خطبته وأخذه فى البناء بمن رغب ، وكانت تود من كل قلبها أن تشهد هذا اليوم — كما كانت تقول له فى كل مناسبة — ولعلها بهذا كانت تفكر من غير قصد أن الزواج يتيح له الاستقرار والهدوء ، ولا يجعله يفكر فى الرحلة إلى الهند كما كان يقول لها أحياناً . وكانت تود لو أنه تزوج من بلده ومن إحدى الفتيات التى تختارها له ، ولكنها لم تجد الآن مجالا لهذه الأمنيات ، وقد أصبح الأمر حقيقة لا تحتمل التبديل .

وأخذ أسامة وأخذت والدته معه يعدان العدة لليوم الموعود فبدأ بعقاره فباعه ، وكانت أمه تحتفظ بحلى ثمينة من اللآلئ والمجوهرات فقدمتها له فاختار منها شيئاً قليلا للعروس ، وباع الباقى بثمن مرتفع ، وأصبح فى يد أسامة ما يكفيه للزواج ويفيض عن حاجته ، فان الحرب قد رفعت من ثمن العقار والحلى إلى حد لم يكن يخطر له ببال .

واقترب الموعد المحدد للعقد وأخذ أسامة وذوو قرابته يتهيأون للرحيل إلى مكة وإذا كتاب يرد لأسامة من أحد الرجال الذين توسطوا بينه وبين والد العروس ينبئه فيه أنه يأسف ليخبره أن

الرجل قد نكص بوعده ، وأنه قد زوج بلقيس إلى مخصوم السمرقندى تاجر الأحذية الشهير بالطائف ويدعوه إلى أن يحمد الله الذى أنقذه من مصاهرة هذا الرجل الذى لا يستحق المصاهرة ... وفى آخر الكتاب حاشية ذكر له فيها أنه تقابل مع الرجل وسأله عن السبب الذى حدا به إلى فعل ما فعل ، فقال إنه استفسر عن حالة أسامة فوجد أنها متوسطة بينما أن مخصوماً هذا غنى ويملك حانوتين بهما عشرات العمال ، وقد دفع مائة وخمسين جنيهاً لابنته مهراً ! ! !

كانت هذه الأخبار السيئة مؤلمة لقلب أسامة ، ولعلنا نكون أكثر دقة إذا قلنا أنها مؤلمة لكرامته أكثر ، فقد كان يحس أن لكيتى فى عنقه ديناً قد أخل به فهو خطيبها وحبيبها وما كان له أن يستبدل بها خطيبة أو حبيبة مهما كانت الحال . حقاً إن الحرب قد قطعت ما بينهما وإنه منذ عام لم يتلق رسالة منها ، ولكن من ذا الذى يعرف إن كانت ما تزال وفية على عهده ، مبقية على حبه أم استبدلت به حبيباً وخطيباً بعد أن يئست من عودته ، كما يئس من عودته إليها ؟ ولكن ماذا تكون الحال لو انفضت هذه الحرب ، وأتاه كتابها تستنجزه الوعد وتدعوه إلى الحضور ، أو تخبره أنها قادمة إليه ، وفزع أسامة إلى غرفته حزيناً يخالط قلبه الأسى ، فرحاً أن كانت الأقدار منعته من خيانة فظيعة كاد يرتكبها فى حق من وهب لها نفسه ووهبته حياتها ... وأقسم على نفسه أن لا يفكر فى الزواج من غيرها ما عاش ... ولكن بلقيس هذه الزهرة التى تشبه كيتى شبهاً عجيباً

أيستحقها هذا الفظ ، مخصوم السمرقندى الذى ضربه أسامة بالحذاء فى وجهه ؟؟ وهاله أن ينتصر مخصوم السمرقندى فى معركة الزواج عليه هو ابن الوطن المثقف ومن خيرة قومه ! !

وقال أسامة لنفسه إن هذا الرجل لم ينتصر علىّ إلا بماله ، وإنى أعتبر انتصاره هذا ليس طعناً فى شخصى وإنما طعناً فى وطنى ، ولأحاربنه وقومه بنفس السلاح الذى يحاربون به الوطنيين وبأقوى منه وأنفذ .. وأخذ يفكر فى الأمور طويلا وخرج من غرفته وقد أسر فى نفسه أمراً .

– ٢٥ –

لم يمض أسبوع على هذا الحادث حتى كان أسامة قد غادر جدة بالطائرة إلى مصر ، وكان قد كتم أمر فسخ الخطبة إلا عن والدته التى ألمت لهذا الحادث ألماً عظيما ، وأخبرها أنه سيسافر إلى مصر فى رحلة قصيرة للسلوى وترك لها مهمة إعلان فسخ الخطبة بالشكل الذى تراه ، وكان قد أعاد إلى أمه قيمة ما باعه من حليها فأبت أن تأخذه باعتبار أنه أهدى إليه منها ، فطلب منها أن تحتفظ به أمانة لديها وسافر إلى مصر وفى نفسه عزم على العمل والجد .

لم يستوقف نظر أسامة ما فى مصر من فتون وفنون بقدر ما استهواه ما رأى من عظمة البلاد ورقيها ، وآلمه كثيراً أن يرى أن اقتصاديات مصر ليست فى يد أهلها ، بل هى فى أيدى الأوربيين وفى أيدى اليهود بصورة خاصة ؛ فالمتاجر العظيمة التى زارها ،

والبنوك والشركات ، كانت كلها أجنبية أوروبية أو يهودية : شيكوريل أورزدى باك ، جاتينو ، جروبى ، شملا ، عدس ، الخ الخ ، كل هذه أسماء يهودية — إذا أين المصريون ، وهذه بلادهم ، وتلك ثرواتهم ؟؟ ولم يهدأ له خاطر ، أو تقر له عين إلا حينما ذهب إلى بنك مصر ، هناك شعر بالعزة تغمر نفسه ، وترفع رأسه ، وهناك انتحى ناحية مستنداً إلى أحد أعمدة البنك ، وصلى صلاة خافتة حمداً لله ، وشكراً له أن رأى بعينيه وفى هذه البلاد الشقيقة بناءاً مصرياً خالصاً ، وذكر الزعيم طلعت حرب ، الرجل الذى بنى لمصر صرحها الاقتصادى المتين ، وآلى على نفسه أن يتخذ من طلعت حرب نبراساً وإماماً ، وتمنى لو يمد الله له فى العمر فيعمل فى وطنه ، ما عمله طلعت حرب فى وطنه ، هناك تقر نفسه عيناً ويطيب قلبه بما عمل ..

لقد علمتــه مصر أن استقلال الأمة الاقتصادى فرع من استقلالها السياسى ، وأن على المواطن اليقظ أن يبنى لوطنه مالا وعلماً إلى جانب ما يتطلبه لها من عزة وكرامة ، فما فائدة الاستقلال فى وطن لا مال له ، أو فى شعب جاهل فقير ؟ !

اتصل أسامة بمصانع الجلود والدباغة فى مصر ، وأتيح له العون فى شخص رجل كريم تعرف إليه فى الحجاز قبل سنوات ، وكان رجلا يحب البلاد المقدسة وأهلها ، وقد اتصل به أسامة فور وصوله وأخبره بغايته ، وهى تتلخص فى أنه يريد أن يؤسس فى بلاده

معملا للأحذية والصناعات الجلدية ليتيح لنفسه أن يعمل فى خلق صناعة جديدة تعتمد على ما تنتجه بلاده من خامات . وأصغى الرجل بسرور إلى حديث أسامة ، وطلب رقماً من سكرتيره بالتلفون ، وتحدث إلى شخص ما ، ثم أخذ أسامة فى سيارته إلى خارج المدينة فوجدا هناك معملا كبيراً للأحذية ، وأخذ الرجل بيد أسامة إلى غرفة مدير المصنع وشرح له الغرض من زيارته ، وعرّف أسامة إلى المدير فرحب الرجل بهما خير ترحيب ، وكان مما قاله مدير المصنع لأسامة :

إنى لكثير السرور أن أرى شاباً فى مثل سنك يفكر فى عمل كهذا ، ولطالما كانت هذه الفكرة تشغلنى وأمثالى من تجار الجلود ، فانى أعرف أن الجلد الحجازى جلد ممتاز ، وهو يصلح فى أصناف كثيرة من الأحذية وخلافها ، بل إن قسما منه يصلح فى الصناعات الجلدية الراقية التى تشبه الحرير فى نعومتها . وأخرج الرجل من درجه نماذج من جلود حجازية ، وقال : لقد أحضرت هذه الجلود من الحجاز لدراستها وقمنا بدبغها هنا وكانت النتيجة حسنة جداً ، ولكنكم فى حاجة إلى مصنع للدباغة أولا ، وفى حاجة قبل كل شىء إلى تنظيم الذبح . ثم التفت إلى أسامة وقال : إن المشروع الذى تفكر فيه يا بنى عظيم جداً فهل درسته دراسة وافية ؟

قال أسامة : إننى يا سيدى شاب ناشىء ، رأيت فى يدى شيئاً من المال ، ورأيت الجلود فى بلادنا كثيرة ففكرت فى أن من الخير

أن نستفيد من جلود بلادنا ، ونصنع لأنفسنا ما يمكننا صنعه من هذا الجلد ، بدلا من أن نخرجه خاماً بأبخس الأثمان لنعود إلى شرائه مصنوعاً أو مدبوغاً بأفدح الأثمان . أما الدراسة فهأنذا بسبيلها اليوم ؛ لقد استعنت بمحمد بك ليضع لى الخطة التى أستطيع بها تنفيذ مشروعى فذكر لى اسمك ، ووصفك بما أنت له أهل ، وقال إنك صاحب صناعة وتخصص وإن من الخير أن نستنير برأيك فى هذا السبيل .

سُرّ الرجل من جواب أسامة ، وقال له : إنى لا أكتم إعجابى بك ، وإنى لأتمنى لك مستقبلا زاهراً يتفق مع ما يضطرم فى قلبك من طموح ، وإنى لأرى أن الفرصة سانحة فى هذا الوقت لأن نعمل معاً عملا مفيداً . وخلاصة ما أراه لك أننا سنجهزك من هنا بالآلات اللازمة لصناعة الجلود وهى بسيطة جداً وقليلة الثمن ، وأهم ما فى المشروع الدباغة ومن المستحيل أن نعمل لك شيئاً فيها الآن ، ولكنى أرى أن تصدر لنا جلوداً خاماً من الحجاز لقاء أن نصدر لكم جلداً مدبوغاً بنسبة ما يستحقه الجلد الوارد منكم من ثمن ، وأعتقد أن حكومتنا ستوافق على هذا الحل لأنه يتيح لنا الحصول على جلود كثيرة ، تمكننا دبغها فى مدابغنا . وسأرسل معك من هنا عاملا من أنجح العمال ، وهو لحسن الحظ يحب الحجاز وأهله . هذا العامل سيؤسس المصنع ، ويديره ، ويقوم بتدريب العمال الحجازيين الذين ستحضرهم له . وأنصح لك أن تختار من الصبية الصغار فإننا نفيد منهم كثيراً . وسأحضر فى زمن الحج لأسعد برؤيتك هناك

ولأرى نتائج العمل . وأخذ بيد أسـامة إلى داخل المصنع فشهد الآلات التى تعمل فى قص الجلد ، والمكاين التى تخيطه ، ورأى أطفالا من التاسعة إلى الثانية عشرة يعملون فى تسمير الأحذية وترتيبها. وسر أسامة بما رأى وأخذ يتفقد كل شىء ويسأل عنه مستفسراً ، وتمنى أن يكون له فى أقرب زمن مصنع كهذا فى الحجاز.

ولا نطيل القول ، فقد وفق أسامة فى رحلته تمام التوفيق فلم يمض شهر واحد حتى كان قد أتم شراء الآلات المطلوبة وبعض المواد الضرورية ، وقد وجد أسامة من مدير المصنع والرجل الذى عرفه إليه كل عون ؛ فقد ذللا له كل عقبة ، ولم يضع هو وقتاً إلا استغله فى عمله . وبعد أن رتب أمر الشحن وما إليه توجه إلى الحجاز عائداً ومعه المدير الذى اختاره له مدير المصنع ، وعاملين آخرين .

عاد الجميع إلى جدة ، واحتاج أسامة إلى المـال الذى وهبته له أمه فأخبرها بما فعل فقدمت إليه المال وقالت : إنه لك ، وإذا احتجت إلى غيره فأخبرنى ، فان لدى حلياً أخرى قد تنفعك فيما أنت مقدم عليه ، وليسدد الله خطاك .

- ٢٦ -

اختار أسامة بمساعدة مديره المصرى أرضاً بيضاء فى طرف المدينة مما يلى طريق مكة فاحتكرها من البلدية وابتدأ فى إنشاء مصنع بسيط عليها ، وكان أهل جدة يشهدون البناء فى هذا الطرف النائى من المدينة فيتشدقون : باع البيت ، وحصص الدكاكين ، والحوش

فى قلب المدينـة ، ليبنى حوشاً فى آخر الدنيا !! إنه ولدٌ مجنون ، لا حول ولا قوة إلا بالله . ولكن أسامة لم يكن يلقى بالا إلى شىء ، كان منصرفاً بأجمعه إلى عمله ، ووصلت الآلات ، وتم بناء المصنع الصغير المكون من عدة غرف والذى يحيط به الفضاء من كل ناحية فهو قابل للاتساع كلما اتسع العمل .

ولم يكن البـدء هيناً ولا يسيراً ؛ فالعقبات كثيرة ، ولكن همم العاملين لا تقف فى سبيلها مصاعب أو عقبات ، فقد شعر أسامة أن ماله لا يكفى لإنشاء مصنع كبير ، ولا لشراء كميات كبيرة من الجلود ، وآلات كثيرة ، وكان يود لو ألف شركة لهذا الغرض ، ولكنه إذ أسر بهذا إلى بعض أصدقائه نصحوا له بأن لا يفعل فان الناس لا يثقون بأمثال هذه المشروعات الخيالية ، ومن الغريب أن صناع الأحذية فى وطنه حينما علموا بعزمه على تأسيس المصنع أخذوا يرهبونه ويخوفونه مغبة التهور ، ونصحوا له بالتخلص منه وبيعه بأى ثمن لأصحاب الصناعة وحذاقها ولكن عزمه كان من حديد .

اقتصر على بناء مصنع بسيط ، واكتفى بالآلات القليلة التى لديه ، واشترى من الجلد ما استطاعه وصدره إلى مصر ، وما إن تم تركيب الآلات حتى كانت الجلود المستبدلة من مصر قد وصلت وبدأ المصنع ينتج أحذية وشنطاً ،وكانت الصناعة جيدة وإن لم تكن كاملة ، والأسعار معتدلة وإن لم تكن رخيصة . وساعد أسامة على النجاح ما أوجدته الحرب من ظروف خاصة جعلت استيراد الجلد

وصناعاته عسيرة مرتفعة الثمن ، وأقبل الناس على صناعة بلادهم إقبالا حسناً ، وفى شهور قلائل كان المصنع قد أثبت وجوده كعامل هام فى صناعة الجلد والأحذية ، واستطاع أسامة بمعونة الرجال المخاصين فى وطنه أن يجد تشجيعاً قوياً ، فأصبح متعهداً بصنع أحذية الجيش ولوازماته الجلدية ، ثم أصبح متعهداً بصنع أحذية البوليس ولوازماتهم ، وتدفقت الأموال فى خزائنه ولم تمض سنتان حتى كان المصنع كبيراً والإنتاج ضخماً ، وعلى درجة عالية من الجودة والإتقان ، واستزاد من الآلات ما أمكنه أن يستزيد ، وكان كلما لقيته مشكلة سارع إلى حلها ، وكثيراً ما كان يسافر إلى مصر وسورية وغيرها لاستيراد ما يلزم لمصانعه ، وكان يجد تشجيعاً وترحيباً أينما ذهب ، وفى العام الثانى حضر مدير المصنع الذى قام بتحقيق المشروع للحج فسره كثيراً ما رآه ، واحتفل به أسامة احتفالا بالغاً ، وكان الرجل قد دخل فى مقاولات كبيرة مع جيوش الحلفاء فرأى أن يشرك مصانع أسامة فيها ، لأن مصانعه وحدها لم تعد كافية ورحل أسامة بصحبته إلى مصر ، واستطاع فى هذه الرحلة أن يحصل على نجاح أعظم طالما تاقت نفسه إليه ، فقد حصل على معمل كامل للدباغة لم يكن أصحابه قادرين على الإفادة منه لقلة المواد فاشتراه منهم وأرسله إلى الحجاز مع جماعة من الدباغين الفنيين، واستطاع أن ينشىء مصنع الدباغة إلى جانب مصنع الجلود فكان عمله بهذا على وشك الكمال، وبذل كل جهد لنجاح العمل فأصبح الجلد الحجازى يدبغ فى هذا المصنع الحجازى

وبأيدى الحجازيين وأساتذتهم من المصريين . وتضخم العمل وكبر واتسع ، فأصبح لأسامة وكلاء فى جميع أنحاء المملكة يشترون له الجلود ويرسلونها إليه ، واستطاع أسامة بوساطة البلديات وضع نظم خاصة للمذابح بحيث يكون الذبح على طريقة فنية لا تتلف الجلد ، وقبل هذا كان يدفع جوائز للذباحين الذين يحسنون الذبح طبق الأصول التى يشرحها لهم ، وما هى إلا العزيمة والجد حتى أصبح العمل كاملا فى جميع أجزائه .

أخذ أسامة بعد هذا يفكر فى خلق صناعة جديدة إلى جانب صناعة الجلود ، فهو يريد أن يستثمر الثروة الحيوانية والقومية لبلاده ما أمكنه الاستثمار ، ففكر فى هذه الأصواف التى تكون على الجلود قبل الدبغ ، إن من الممكن الاستفادة منها وغزلها وخلق صناعة محلية أخرى منها ، وعلم أن فى سورية والعراق مصانع للأصواف الحيوانية ذات قيمة ، فطار إليها وتعرف إلى أصحابها وشرح لهم فكرته ، ووجد منهم تشجيعاً كالذى وجده فى مصر ، فكان يرسل إليهم أشعار الحيوانات ليستبدل بها غزلا بنسبة معينة ، واستطاع الحصول على آلات للنسيج يدوية فأحضرها مع جماعة من الفنيين وأسس مصنعاً لنسيج العباءات الصوفية ، الخفيفة والثقيلة وما إليها ، وأخذت أعماله تتضخم ، وواتاه النجاح إلى درجة لم يكن يتصورها ، فأصبحت له مراعٍ خاصة بالماشية لتربيتها على الطرق الفنية الصحيحة بحيث يمكن الاستفادة من أشعارها وأصوافها وجلودها وأوبارها استفادة تامة ، وقد رأى أن

أمواله على سعتها لا تتسع لكل هذه المشروعات العظيمة التى يفكر فيها فأخذ يجعل لكل مشروع شركة خاصة يساهم هو فيها بنسبة لا تقل عن النصف ويطرح الأسهم الباقية للاكتتاب العام . وكان اسم أسامة الزاهر ومصانعه قد أصبحت مثلا سائراً على النجاح والجد ، فأقبل الناس على الاكتتاب فى شركاته إقبالا أثلج قلبه ، فأسس شركة الجلود ، وشركة المدابغ ، وشركة المراعى ، وشركة النسيج ، وأخذ يفكر بعد هذا فى صناعات أخرى ، وقد أتيح له أن يحقق الفكرة التى اختمرت فى رأسه وهو يطل على أودية تهامة ، فالمراعى التى اختارها لتربية الحيوانات كانت فى وادى فاطمة والأودية المتصلة بها ، فاشترى هناك مزرعة استخدم فيها كثيراً من الرعاة البدو ، فبدأ بتنفيذ فكرته بينهم ، فكان أول ما يعمله حين شراء المزرعة بناء مسجد فيها ، يرسل له إماماً من المدينة وكان هذا الإمام يقوم بالصلاة فى المسجد ، ويعلم الناس واجباتهم الدينية ، كما كان يعلم أبناء القرية مبادئ القراءة والكتابة . وكان أسامة يغرى الأئمة بالمرتبات الضخمة ويحسن لهم الإقامة بأسرهم فى القرى ، ويبنى لهم بيوتاً صغيرة للسكن ، ويسمح لناظر المزرعة باعطائهم مرتبات من الخضار والفواكه ، ومن خيرات المزرعة الأخرى كالبيض واللبن والدجاج . وكان أسامة يقضى عطلته الأسبوعية فى هذه المراعى فيحضر كل أسبوع إلى إحدى مزارعه مع خاصة صحبه ومعاونيه متفقداً أحوال العمل ، والمدارس الصغيرة ، ثم وضع إلى جانب هذه المدارس مستوصفات صغيرة مجهزة بمختلف

الأدوية ووضع فى كل واحد منها حكيما أو معاون حكيم ، واتفق مع بعض الأطباء على زيارات أسبوعية لهذه المزارع لتفقد أهلها وتطبيبهم فى الأمور التى لا يقدر عليها الحكيم المقيم ، وكانت سيارة المزرعة تنقل المرضى الذين لا يمكن الصبر عليهم إلى مستشفيات المدن القريبة لتطبيبهم ، أما فى مصانعه الكبيرة فى المدن فقد أوجد نظام تعليم أبناء العمال ، والمعاشات ووظف طبيباً خاصاً ، وأنشأ مستشفى ومسجداً ، وملعباً فى كل مصنع من المصانع. وحسّن للعمال المساهمة فى الشركات التى يعملون فى مصانعها حتى يشعروا أنهم يعملون فى أموالهم ، ومصانعهم ، وكان يعطيهم نسباً معينة من الأرباح ليجوّدوا أعمالهم وليكون لهم نصيب من الربح فيما ينتجون . وكان أسامة يرسل سنوياً إلى مصر بعثات للتخصص فى الصناعات التى تقوم بها شركاته ، كما كان يبث روح العمل والعزم حيثما حل وأينما رحل ، وبهذه الصفات أصبح أسامة محبوباً لدى الشعب والحكومة ، محبوباً لدى عماله وموظفيه يفدونه بأرواحهم ، ويستميتون فى سبيل مرضاته ، وكان هو يحدب عليهم ويحنو على صغيرهم ، يلاطف الفتيان ، ويتفقد الشيوخ ، ويعنى بالصغار ، ولكنه لا يتسامح فى الإهمال أو سوء الخلق .

— ٢٧ —

الحرب فى مراحلها الأخيرة ، وأسامة متعب بعد أن مضت عليه سنوات خمس فى عمل دائب وتفكير مستمر ورحلات متواصلة ، وقد ذهب إلى إحدى مزارعه فى الطائف فان المراعى

كثرت والمزارع أصبحت مقسمة فى مناطق كثيرة من البلاد ، فى الطائف وحول مكة ، وجدة ، والمدينة ، وينبع والحلم القديم أصبح حقيقة عظيمة ، تثلج القلب ؛ فهذه المزارع فى كل منها مدرسة صغيرة ومسجد ومستشفى ، وهذه المصانع تغص بمئات العمال وهو يفكر فيما يأتى به السلام وما ينبغى له من مشروعات جديدة ومن تجديد لمصانعه ، ومن مكافحة للواردات الخارجية التى ستؤثر على منتجات مصانعه وتزاحمها ، وبين يديه تقارير كثيرة من رؤساء العمل ، ومديرى الشركات يقرؤها فى تؤدة ويوقع عليها بما يراه ، وأقبلت أمه وكانت تصحبه فى هذه الرحلة فرأته منهمكاً فى أوراقه وتقاريره فلم يحس بمقدمها ، وتعب أسامة فأسند رأسه إلى وسادة وثيرة وأغمض عينيه وقال لنفسه يحدثها : ثم ماذا . . ؟ فقالت أمه وهى تداعب شعره بيديها ، ثم ماذا ؟ لقد وخط الشيب رأسك يا بنى وأنت لم تتزوج بعد ، لمن ستترك كل هذه الدنيا العظيمة ، وكل هذا المجد ، وإلى متى تعيش محروماً وأصغر عامل من عمالك سعيد منعم ؟

فسكت أسامة وأطلقها آهة من صدره حرى ، ثم التفت إلى أمه وقد تذكر كيتى ، كيتى الحبيبة الغائبة ، إنها هى وحدها التى تصلح له اليوم ، وقبل اليوم ، وبعد اليوم ، لقد فكر فيها قبل أن يحضر إلى هذا المكان ، وحينما كان فى مكان شبيه به فى قريتها الساحرة من ريف الهند ، وفكر فيها يوم عزم أن يعمل مدرساً فى قرية من قرى الطائف ، وهو يطل على وادى تهامة العميق ، من

مرتفعات الشفا ، وهو يفكر فيها اليوم وقد أصبح رجلا عظيما واسع الثراء ، وقد حقق لأمته ولقومه ما يريد ، وسيحقق إن مد الله فى عمره كلما يريد . وقلبه ونفسه هو أليس لهما عليه حق ؟ إنه امرؤ يعيش بلا أمل وبلا حب ،إنه يعيش على الذكريات ، وما أمرها وأحلاها ... ورأت أمه صمته وشجونه فلم تزد ، وانطلقت إلى حيث دعتها وصيفة من الوصائف لترى بلدوية مريضة كى تعطيها شيئاً من الكنين فهى الآن تقوم بما كانت عسية أن تقوم به كيتى لو كانت هنا ؟ ؟ ؟

وسرح أسامة بصره فى المزرعة الجميلة الخضراء ، وشاهد القطعان وهى ترعى العشب السندسى ، والطيور توصوص ، والأزهار متفتحة تنفح الشذا والعطر ، وقال لنفسه : إن لنفسك عليك حقاً فلتأخذ حظك من الراحة اليوم ، وطوى الأوراق وفتح درج المكتب فاذا علبة صغيرة تطالعه ففتحها مستغرباً وإذا فيها خصلة شعر تلك التى أحبها ، والتى تسلمها من يديها والقطار يتحرك ، وهى تقول : لا تنسنى ؟

أجل إنه اليوم متذكر ، وكل شىء يذكره بكيتى وما أعذب الذكرى ، وما أمرها فى قلبه الحزين ...

أين هى اليوم ؟ وهل تذكره كما يذكرها ؟ وهل تحن نفسها إليه ويهفو قلبها شوقاً ، كما يهدهده الحنين ويبرحه الشوق ؟ لها الله وله لشد ما أحبها وشد ما هو إليها مشتاق .

وألحت عليه الذكريات فزادته ألماً وهماً ، وكان الحج قد أطل وأقبلت مواسمه ، وكانت له عادة أن يحج فى كل عام بمن يفد إليه من ضيوف ورجال أعمال ، فى صحبة كبار رجاله وصحبه ، فكتب إلى معاونه يخبره برغبته فى الراحة هذا العام ويعهد إليه بالحج بدلا عنه ، ولكن برقية قبيل الحج وردت إليه من مكتبه بوصول أحد كبار الصناع المسلمين ورغبته فى لقائه ، فعاد مسرعاً إلى جدة وبه تعب ، وفى نفسه آلام ، وحج كما كان يحج كل عام مع ضيوفه ورجاله ، وكان الضيف الذى وفد عليه هذا العام يرغب أن يرحلا معاً إلى أوروبا وأمريكا ، فالحرب قد انتهت ، والهدنة قد أعلنت ، والقنبلة الذرية قد جعلت من اليابان أمة خاسئة ذليلة ، ومصانعه القديمة تحتاج إلى تجديد ، ومشروعاته الجديدة تحتاج إلى تنفيذ ، ولكنه كان متعباً ، وكان يفكر فى هذا ويفكر فى نفسه مرة أخرى ...

- ٢٨ -

الوقت ضحى ، واليوم يوم عيد الحج الأكبر ، ومنى تموج بعشرات الألوف ، بل بمائة وخمسين ألف حاج من جميع البلدان ، وفى شتى الأشكال والألوان ، أزياء مختلفة ، وألوان متباينة ، وألسنة تنطلق بكل اللغات ، وأسامة فى ملابس الإحرام يحمل فى يديه الحصى ليرمى جمرة العقبة وهو بادى الإجهاد ، يحمل له خادمه الأمين شمسية يظلله بها ويحاول أن يجد لسيده طريقاً ، وتقدم أسامة فألقى بالحصوات ، واستقبل القبلة يدعو الله بما شاء ، وإذا

رجل هندى فى ملابس الإحرام له لحية طويلة لم يبق من سوادها إلا القليل ، وخلفه امرأتان تسيران ، ونظر الحاج الهندى إلى أسامة متفرساً وهو منهمك فى دعائه ، منشغل بالتأمل فى هذه الأمواج البشرية العظيمة، وفى هذا الدين العظيم الذى يجمع الناس من شتى الأقطار فى هذه البلدة النائية التى لا تسكن إلا أياماً ثلاثة فى العام .

وتقدم الرجل إلى أسامة وأمسك بكتفه ، فالتفت فاذا هو أمام رجل لا يكاد يذكره . قال الرجل : أسامة صاحب ... السلام عليكم .

قال أسامة . وعليكم السلام ... الحاج أكبر على ؟

قال : نعم أنا هو الحاج أكبر على، وقد أتيح لى أن أحضر حج هذا العام بعد أن قطعت الحرب طريق الحاج علينا سنوات. والتفت الحاج أكبر وقال لأسامة : وهنا سيدتان معى أظن أن لك بهما معرفة ؟ وتلفت أسامة فاذا كيتى وأمها ؟ ؟ ؟ .

أية معجزة وكيف قدما . ! ! وأقبلت كيتى فتلقاها أسامة بكلتا يديه ، وكانت حينما وقع بصره عليها تتأمله والدموع فى عينيها ... ، وأمها تبتسم، وهما فى ملابس الإحرام البيضاء سافرتين ساحرتين : مرحباً بك يا كيتى ، وأنت يا والدتى ، أهلا بكما ، وكان ترحيبه من القلب ، وقالت والدتها : لقد تعبنا كثيراً حتى رأيناك ، لست تدرى ماذا لقينا بعدك يا بنى ، إن كيتى كثيرة الشوق إليك ، أما هى فلم تنطق بل استندت إليه تكاد تسقط إعياءاً وحباً ... ، ووقف الزمان عن حركته ،

ولم يعد يرى أسامة فى هذا الموج المتلاطم ، إلا هذه الفتاة الهندية ذات الوجه الأصفر الجميل ، وهذا الشبح الأبيض كالملاك يرفرف بجناحين من نور... وقال أكبر على — : أرى أن نذهب إلى الدار الآن فالطريق مزدحم. وتنبه أسامة فقال : نعم إلى الدار ... إلى دارنا فانكم ضيوفنا منذ اليوم ...

وانطلقوا إلى البيت ، والحاج أكبر يسير بجانب أسامة وكيتى تحيط أمها بها ويسندها أسامة بذراعيه والخادم يفسح لهم الطريق .

قال الحاج أكبر :

لقد سافرت إلى جوكولا مع ابنتى فقد مرضت ووصف لها الطبيب تلك القرية فتعرفت هناك ببلقيس وأمها ، وأشار إلى كيتى . فنظر أسامة إليهما مستغرباً فتبسمت ولم تزد ... ووجدت منهما ميلا إلى الإسلام فحببت لهما الدخول فيه ، واتصلت أسبابى بأسبابهما فعرفت أنهما يعرفانك ، ويسرنى أن تعلم أنك كنت السبب الأول فى إسلام بلقيس ، فقد كان لحديثك معها عن الإسلام أثر كبير فى إسلامها ، فليهنيك أن أدخلت فى الدين الحنيف سيدتين كانتا مسيحيتين. وكان أسامة عظيم السرور بما يسمع ، ولولا الموقف ورهبته ، والشيخ أكبر على لاستطار فرحاً ، ولتصرف تصرف لأطفال ....

واستطرد الحاج أكبر على يقول :

وبعد أن علم المستشفى بإسلامهما تنكر لهما رئيسه المسيحى فرحلت بهما إلى كراتشى وسعيت لإلحاق بلقيس وأمها بمستشفى

إسلامى هناك ، وكان همهما الأكبر أن يحضرا للحجاز للحج ، وللقائك . وقد سعينا حتى سافرنا إلى عدن فى إحدى البواخر بطريقة سرية ، ومنها قدمنا إلى جدة فى يوم عرفات فلم نلبث ، وقدمنا إلى مكة ثم عرفات فى نفس اليوم على سيارات أعدتها الحكومة للحجاج القادمين فى ذلك اليوم وقد أراد الله بنا خيراً فلقيناك اليوم ، قال أسامة : فان الله سبحانه وتعالى جعل من هذا اليوم يوم عيد للمسلمين عامة ، وللحجاج منهم خاصة ، وهو عندى يوم عيدين فقد جمع الله به شملنا فى منى ، وهى ملتقى الأحباب ، وسيكون إن شاء الله لنا عيداً ثالثاً ودائماً يا بلقيس .

وكانوا قد وصلوا إلى الدار ، فاستدعى أسامة والدته وعرفها إلى بلقيس وأمها وطلب إليها أن تكرمهما ما وسعها الإكرام ، وفى عصر ذلك اليوم ، وكان مجلس أسامة غاصاً بالمهنئين من علية القوم من حجاج ووطنيين ، أحضرت مباخر العود ، وتلا الحاج أكبر على بعض الآيات ثم عقد لأسامة على بلقيس وسط سرور القوم وتهانيهم وهكذا تم لقاء الحبيبين .

ختام

أيها القارئ العزيز :

تعود الروائيون والكتاب أن يقدموا لمؤلفاتهم ، أما أنا فان سياق الحوادث فى روايتى تدعونى لأن أختم الكلام عنها ، وأنت لست فى حاجة إلى أن تعلم أن هذه الرواية خيالية محضة ، فأنت إن كنت من أبناء هذا الوطن فانك تعلم حقاً أن بطل الرواية أسامة الزاهر شخص ليس له وجود حقيقى ، وأن النهضة الصناعية والعلمية التى قام بها ، والصرح الاقتصادى الذى أنشأه ، والمرافق التهذيبية والاجتماعية التى أسسها ليست سوى حلم ضخم فى رأس المؤلف ، الذى هو رأسى أنا ، إن كان لابد من هذا الإيضاح . أما ما هو الغرض من تأليف هذه الرواية ، أو هذه الأكذوبة الضخمة ، فلا أظنه يخفى عليك يا سيدى القارئ ، إن كنت ممن يستعملون رؤوسهم فى الشئ الوحيد الذى خلقت من أجله وهو التفكير ، فلست أحاول أن أشرح لك الغرض ، وإلا لكان هذا سوء ظن بل سوء أدب منى ، فى حق عقلك وتفكيرك .

قد ترانى متشائماً فى بعض الفصول ، وإن كنت عظيم التفاؤل فى نهاية الرواية ، وأود أن أقول لك هنا — ولعل هذا هو السبب الوحيد الذى دعانى إلى كتابة هذه الكلمة الختامية — : إنى متفائل فعلا ، بل أنا عظيم التفاؤل ، فهذه الرواية بدأت كتابتها قبل أربعة أعوام ولم أنته منها إلا اليوم ، وليس هذا لأنى فكرت فيها كثيراً ، أو احتفلت بها ، فلعل العكس هو الأصح ، فقد بدأت بكتابة

الفصول الأولى فى عام ١٣٦٤ ثم سافرت إلى مصر لأغيب بضعة شهور نسيت فى أثنائها الرواية وحوادثها ، وعدت فاهتممت بأمورى الخاصة منشغلا بها عن كل شىء ، إلى أن وقعت على الفصول المكتوبة من الرواية فى العام الماضى ، وأنا أتهيأ لقضاء شهر رمضان بالطائف ، داخل أحد الكتب التى أصطحبها عادة فى مثل هذه الرحلة، فأخذتها معى وأعدت قراءتها ، وألحقت بها فصولا كثيرة ، ولكن رمضان أوشك على الانتهاء وعدت إلى جدة

وللرواية بقية تطالبنى بدينها ، ولم أجد من نفسى ، ولا من مشاغلى قدرة على إتمام هذه البقية الباقية فطويتها فى مكتبى إلى رمضان القادم ، وأخذتها معى فى مطلعه إلى الطائف ، فأكملتها ، فاذا رأيت فيها تفككاً فاعلم أن هذا هو السبب لأنها لم تكتب فى أوقات متلاحقة بانتظام ، وإن رأيت اختلافاً فى الأسلوب فلعل السر فى هذا هو اختلاف الأوقات واختلاف التفكير حين الكتابة والتأليف .

بقى شىء واحد وهو الشىء الأهم الذى من أجله أتفاءل وأريد أن تتفاءل معى يا سيدى القارئ الكريم، فهذه الرواية تتحدث عن الهند ، فقد أراد خيالى أن يبعد إلى الهند ، وثق أنى لم أعرفها ولم أرها وإنما سمعت بها سماعاً ، ولعلى قدمت بعض مدنها وأخرت الآخر ، وأظن أنه ليس يهمك هذا كما أنه لم يهمنى ، ولا أرانى فى حاجة إلى تحقيق هذه المسألة التاريخية والعناية بها ، وإلا لتأخرت الرواية

عاماً آخر ، تتغير فيه الدنيا تغيراً كبيراً حتى نصبح — أنا وهى —
من آثار الماضى . أقول هذه الرواية تتحدث عن الهند وعن
الاستعمار الإنكليزى فيها ، وقد كان ما كتب عنها هو المفهوم من
حالتها يوم أن كتبنا ذلك ، أما الهند الآن فقد نالت استقلالها الذاتى
وأصبحت دولتين عظيمتين ، فمساوئ الاستعمار التى قرأتها فى صلب
هذه الرواية قد زالت ، أو هى فى سبيلها إلى الزوال . أما مساوئ
الطائفية والفرقة فلعلها اليوم أعظم ظهوراً وأكثر تبياناً ، وهذه
الرواية تتحدث عن مصر ، والبلاد العربية الأخرى بمثل ما تتحدث
عن الهند ، وقد استطاعت حوادث فلسطين أن تخلق من العرب
أمة جديدة تؤمن بنفسها ، وتؤمن بحقوقها ، وتضحى بالحياة والمال
فى سبيل الذود عن الشرف ، والاحتفاظ بالكرامة ، وقد جلا
الإنجليز عن المدن المصرية العظيمة ، وإن بقيت لهم بقية أو بقايا
فى بعض المواضع ، ولكنهم بسبيل الجلاء العاجل إن شاء الله .

وقد كان الاقتصاد المصرى كما ذكرنا فى هذه الرواية ولكنه الآن
يتحرر تحريراً منظماً على يدى بنك مصر وشركاته ، وعلى يدى
عبود باشا وشركاته ، وعلى أيدى غيرهما من عظماء الرجال ،
وأخيراً فان قطرين عزيزين فى هذه الحقبة القصيرة من العمر قد
نالا استقلالهما ، وتوطدت لهما أسباب السيادة ، وهما سورية
ولبنان ، وإنا لنرقب فى أمل واعتزاز نهضتهما الشاملة الكاملة
إن شاء الله كما نرقب توثب المملكة الصغيرة الجديدة شرق الأردن

فى فرحة العربى الذى يسره أن يرى حديقة جاره الميتة وقد دبت فيها الحياة .

وأخيراً ولعله كان يجب أن يكون أولا ، إن هذه الرواية تتحدث عن بلادنا بأحاديث كثيرة ، بعضها مظلم شاحب ، وبعضها مؤلم كئيب ، والقليل منها مشرق الصفحة وهو الخيال . . . الخيال الجميل ... وأنا أزعم لك أن حياتنا تتطور تطوراً حسناً ، وأننا آخذون بأسباب نهضة شاملة لا شك فيها ، فالماء الذى كانت تفتقده مدينة جدة أصبح حقيقة مثلجة للنفس منذ شهور ، وإن كان هذا لا يمنع أن تكون الطائف فى سبيلها لأن تكون ، وجدة القديمة فى شح الماء وقلته ، والميناء الذى تتحدث عنه هذه الرواية فى فصلها الأول فى مدينة جدة ومصاعبها ، هو فى طريقه اليوم لأن يصبح تاريخاً قديماً ؛ فان العمل فى الميناء الحديد الذى ترسو عنده البواخر كما هو فى كل ميناء آخر من موانىء العالم يسير قدماً ولعله موشك على التمام ، وهناك أحاديث كثيرة عن إضاءة المدن الكبرى إضاءة عامة بالكهربا ، وعن بناء مستشفيات شعبية ، وعن إصلاحات شتى تتصل بالتعليم ونظام الهجرة وما إلى ذلك ، وهذا هو الجانب الحكومى ، أما الجانب الشعبى فهو إقبال الناس على التجارة ، وتفكيرهم فى إدخال الصناعات التى تحتاج إليها البلاد ونشاط الشركات الشعبية ودخول عناصر جديدة فى الاقتصاد ، نهضت بأفكار الناس إلى مستوى أرفع وأسمى من ذى قبل ؛

ولا شك أن كل هذا جديد علينا ، وهو فى ذات الوقت قليل إلى جانب ما يجب أن يكون ، وإلى جانب ما نحب ونأمل ، ولكنه كثير إلى جانب ما كنا عليه ، والى الزمن القصير الذى تم فيه ، فأنت إذا قرأت هذا الكتاب يا سيدى فستجد فيه شيئاً من التاريخ ،وهو الماضى الذى اختفت صوره ، وتجد فيه شيئاً من الحاضر الذى يوشك أن يزول أو الذى نتمنى أن يتبدل فيه الحال إلى خير حال ، وتجد فيه شيئاً من المستقبل الذى أرجو أنا وترجو أنت أن يكون فى زمن قريب أو بعيد .

نهاية رمضان سنة ١٣٦٧ محمد على مغربى